من الشرق والغرب

إنسان السد العالي

صنع الله إبراهيم
كمال القلش
رؤوف مسعد

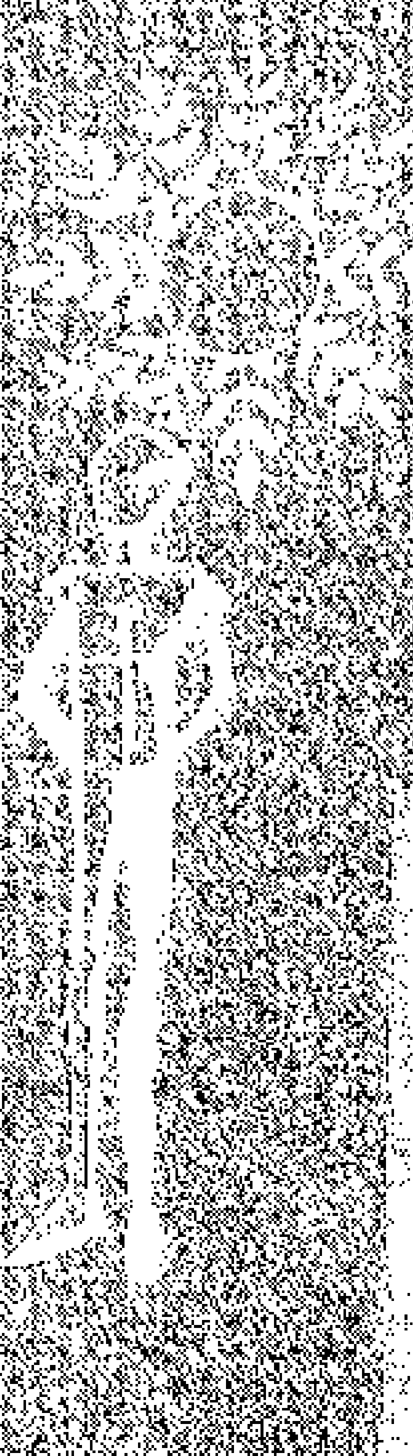

Bibliotheca Alexandrina
0217421

من الشرق والغرب

إنسان السد العالي

صنع الله إبراهيم • كمال القلش • رءوف مسعد

الله الله .. هيلا هيلا ..
ياواقف تحت الشمس عشان الحفلة تصير كيلة
الله الله .. هيلا هوبه
يا طابع ايدك فوق بوابة الشمس الخضرا أماني ومحبة
اعمللى من المحبة قبة
واعملي من جيل الراحة مليون ميلة
الله الله .. ياحليلة .
الجبل الشق وطق وباقفل باب همى
واخوالى مع صحابى خيلانى جيرانى عمامى ولاد عمى
بيعملوا الصدر الاسوانلى
ويرشوا تحته الصليلة
قول للدكتور
اللى بيغز الابرة ف لحم دراعى من غير مايسمى
انا حاسس ان دراع السد ..
محتاج لشوية من دمى .

من قصيدة « أغنية للسد »

للشاعر عبد الرحمن الأبنودى

أصعب كتاب فى العالم

انه حلم قديم .. حلم الكتابة عن السد ..

فكيف يمكن لابن مصر الاشتراكية ان يغمس قلمه فى المداد دون أن يدشنه اولا بهرم العصر ؟

ذلك ان الهرم الجديد ، الذى يرتفع عاليا ،يوما بعد يوم ، هناك عند اسوان ، قد غدا رمزا على معركة افريقيا ضد الاستعمار ومن اجل البقاء ، ورمزا على التعاون المخلص بين الشعوب وعلى الصداقة الأممية ورمزا لغد الوفرة الذى تتطلع اليه الملايين ..

والاحلام لاتتحقق بسهولة ..

وهكذا كان لابد ان تمضى سنوات قبل أن تتاح لنا الفرصة اخيرا ..

ولكننا احسسنا هناك فوق السد ، بعد فترة من الوقت ، انه من المستحيل أن نكتب كتاباً عن السد فكل ماسنكتبه بعد يوم او يومين او على الاكثر شهر سيصبح قديما ، وسيصبح الكتاب تاريخا ماضيا .. لان السد يتغير كل يوم ..

نزور الانفاق مثلا . ونعيش فيها يوما أو يومين .. ونكتب ثم نعود بعد عشرة أيام لنجد كل ما كتبناه غير موجود .

كنا سعداء بانفاق التفتيش لأننـا وجدنا شيئا فى بدايته ، لحقنا الخراســـانة وهى تصب ، وعندما عدنا اليها فى نهاية الشهور الثلاثة وجدناها قد اختفت غطوها بالطمى ، ودكتها البلدوزرات ·

وقال لنا احد المهندسين ·· انتم تكتبون اليوم عن الموجودين ، عن الذين ترونهم ، ولكنكم لم تروا اناسا كان لهم دور جبار ورائع وتركوا السد ·· الذين بدءوا البدايات الشـــاقة اغلبهم ذهب ·· وعندمــا ستأتون فى عام ١٩٦٩ مثلا ، ربما لن تجدوا اغلب من رأيتموهم هذا العام ، سترون اناسا جددا ، فمــاذا ستفعلون ؟ هل ستضعون كتابا كل شهرين ··؟

شعرنا وكأننا نواجه نهرا جاريا متدفقا ، لايمكن تركيز النظر على موجة واحدة من موجاته ووصـفها لنعبر بها عن النهر ·· والناس تتغير ، تولد وتعيش . وتعمل هنا وهناك وتموت ، ومن المستحيل علينا ان نحصر كل الموجات او ان نوقف جريان النهر لنكتب ·

فى الشهر الأول رحبوا بنا ، وكانوا يعاملوننـا كفاكهة نادرة ظهرت فى غير أوانها ·· فالزوار الذين يريدون الكتابة يذهبون عادة فى الشـــتاء ليستمتعوا برحلة طيبة الى شمس اسـوان وكتاراكت ، ولكننا ذهبنا فى الصيف ، وكان أحد الأسباب أن « صنع الله » صمم على مشاهدة آخر فيضان سـيصل مصر ·· وصمم على أن يرى العمل فى ذروة الاجهـاد والحرارة « والا فكيف سنكتب ! » ·

وهكذا ذهبنا فى يونيو ، وعشـنا على الشاطىء الملتهب ، واسوان تغلى · وجرى «صنع‌الله» مع النيل فى مركب الى الشمال · الى « أبو سنمبل » وظل يلهث هنا وهناك بحجمه النحيف الذى يكاد يلوى وحده ··

وفى الشهر الثانى اشـتدت موجة الحـرارة ،

للدرجة أن بدأ الناس يتساقطون .. وفكرنا لحظة أن نجمع ملابسنا ونحزم حقائبنا ونعود فى وقت مناسب أكثر .. ونحن نفكر ونتردد ، هكذا سقط رءوف مريضا بنفس الاعراض المميتة ، الحرارة المرتفعة والاحتقان وذوبان الجسم . ونقل الى المستشفى ، وكانت المستشفى مجرد مرحلة شكلية ، فبعدها بساعات يحين الاجل . وواجهتنا كارثة حقيقية : ماذا نفعل ؟ وسهرنا طول الليل بجواره . وامتد الامر لاكثر من ليلة . ولم نتحدث لا فى سفر ولا فى اقامة ، فنحن نرتب شحن جثة ، ونفكر فى والدته المريضة واخيه واهله كيف سنواجههم وكاننا نحن الذين قتلناه . واجتاز رءوف المحنة رحمة بنا ، وكان طبيعيا ان نلحق انفسنا ونرحل ، وكانت الكلمة النهائية والحاسمة على اية حال لرءوف نفسه ، وقال اننا لم نر بعد أجزاء من السد يجب أن نراها والا فكيف نكتب عن السد ؟

وواصلنا ..

وفى الشهر الثالث قال لنا العمال والمهندسون انتم أصبحتم تعرفون السد أكثر منا ، مثلا انا الذى أعمل فى المحجر أو الانفاق ، لا أرى غير الجزء الذى أعمل فيه ، ولا أرى الصورة كلها ، لاارى الموقع كله أبدا ، بل كل مرة افاجأ وانا فى طريقى الى عملى بتغيرات لم الحظ أبدا بدايتها .. ولكنكم انتم رأيتم كل الأماكن .. كل موقع من المواقع .. نريد أن نرى ماستكتبونه ونقرؤه ، لنعرف كل شيء عن السد .. !

أليست مهمة صعبة أن نكتب ويقرأ لنا حتى الذين يعيشون السد نفسه .. أليس كتابا صعبا ورهيبا ..؟!

وعندما عدنا واجهنا أصعب مشكلة ، مئات القصاصات معنا ، مئات من الصفحات ، ماالذى نكتبه وما الذى نتركه ؟. وكل ما معنا تغير .. والناس ..

كيف نختار .. وعلى أى اساس .. وهل نحن حقا — بيني وبينك — نعرف شيئا يستحق الكتابة عن السد ؟

لقد غرفنا بايدينا ملء قبضة من الناس وفرزناهم وكتبنا عنهم وعن حياتهم .. ولكن .. هل هؤلاء فقط الذين ستجدهم هنا فى هذا الكتاب هم رجال السد ؟ مستحيل طبعا ، هل هؤلاء هم العصب الرئيسى للسد، قطعا نحن لانعرف .. وانما نحن نقدم رمزا ما للعمل .. عدد من الناس ليسوا هم ابرزهم ولا احسنهم ولا أعظمهم ، فقط الذين تصادف وقابلناهم ، الذين استوقفناهم واستوقفونا .

مشكلة اخرى .. كيف يكتب ثلاثة عملا واحدا؟ فهى أول تجربة لنا أن نشترك معا ونتفرج معا ونعيش معا ونكتب معا . ولقد كانت تجربة جميلة أحيانا وكانت فى احيان أخرى محنة لايمكن ان يتصورها احد ! احد عاقل .

***

وأخيرا اعترف واقول ان هذا الكتاب ليس كتابا عن السد العالى .. لان كتابة كتاب عن السد العالى فى رأيى أمر مستحيل ، وليس صورة للسد العالى ، وانما هو بالضبط صفحات تصادف أن كتبناها بين يونيو ١٩٦٥ ، سبتمبر سنة ١٩٦٥ .

ونحن ننتهى من هذا الكتاب ، نشعر برغم المتاعب التى صادفناها ، وعرقلتنا طويلا ، وبرغم الجهود التى بذلناها أحيانا وضاعت هباء .. نشعر أننا قد عشنا أروع أيام حياتنا ، أروع تجاربنا بين يونيو وسبتمبر ١٩٦٥ ، واننا نحلم من جديد ان نعيش ولو اياما قليلة لنرى السد فى عام آخر .. ولنغتسل فى رحابه ونعيش على ضفاف معركته ، معركة الانسان المصرى البسيط الذى يبنى ولايتمامل .. وينحت الصخر ، ويهزم الجبل ، ويهد الدنيا . ويبنى عصرا جديدا لمصر جديدة ، تحت لواء زعامة رائعة وعبقرية ..

كمال القلش

السوق..

للوهلة الأولى يبدو لك انك فى مكان مألوف ٠٠ مثل بقية المدن الصغيرة المتناثرة على طول الشريط الاخضر ، فى الجنوب وفى الشمال ٠٠ فهاهو الحنطور خارج المحطة يعمل بهمة مزودا ببوق جلدى كبير ٠ وستلمح عينك زحام المدن الصغيرة ٠ بل وبوادر شبكة من الحوارى الضيقة الى اليسار مباشرة تطل عليها مبان قديمة متلاصقة ٠ ولكنك ستفتح عينيك جيدا عندما تتحول الى اليمين لترى وجه اسوان الجديد ٠

عشرات من سيارات الأوتوبيس الضخمة تنتظر ٠ والى جوارها لوحتان احداهما بالعربية والأخرى بلغة غريبة ستظنها الهيروغليفية حتى تقع عيناك على الوجوه البيضاء ، والشعر الأصفر ، والأجسام الضخمة فتتذكر وتقول : آه ٠٠٠ الروسية ٠

ومن المحطة يمتد طريق واحد رئيسى على النيل يسير فيه الجميع ٠٠ الناس وسيارات الاجرة والحمير وسيارات صغيرة تحمل لافتات تعلن انتماءها للسد العالى او القطاع العام او الحكومة ٠ ليس بينها سيارة خاصة واحدة ٠٠ ثم سيارات الأوتوبيس الضخمة ، العربية والانجليزية والتشيكية ٠ بالوان متعددة تعين وظيفتها وخط سيرها ٠٠ الخضراء والحمراء تعمل بين أسوان والمدن المجاورة ، وهى سيارات أوتوبيس حقيقية بمعنى انه لابد من دفع ثمن التذكرة ٠٠ أما بقية السيارات الصفراء والرمادية والزرقاء فهى تقوم على خدمة العاملين وعائلاتهم فى السد العالى والأسمنت والمقاولين العرب وكيما والحديد والصلب ٠٠ مجانا ٠

وفى طريق النيل تنطلق هذه السيارات أمام صف طويل من المبانى الضخمة الجديدة ٠٠ عمارات سكنية ٠٠ السوق السياحى ٠٠ محلات ضخمة حديثة تابعة للقطاع العام ٠٠ دار الثقافة والمكتبة ٠٠ فنادق ضخمة كاحدث الفنادق العالمية ٠

طريق النيل ضيق ٠٠ النيل على اليمين ٠٠ وعلى اليسار شريط المبانى الجديدة ٠٠ وخلفه المبانى القديمة فى حضن جبل ٠٠ المكان كله مكدس ٠٠ يدور فيه صراع رهيب ٠ كل يحاول ان ينال من الآخر ٠٠

النيل الهادىء سيموج بالحركة بعد شهر وعندما تصله امدادات الميـاه الحمراء من الحبشة سيهاجم المدينة ويحاول ان ينـال من ارضهـا ٠٠ والمدينة القديمة تكاد تنفجر من الزحام ولا تعرف اين تزحف ٠٠ وعندما ترى مكاتب المحامين فى الطريق مبـــاشرة بجوار محلات البقالة والمطاعم يخيل اليك ان المدينة القديمة تريد ان تنال من هذا الطـــريق الضيق وتزحف اليه ٠٠٠ وبين الاثنين ـ النيل والمدينة القديمة ـ يمتد شريط المبانى الحديثة يحاول أن يشق لنفسه طريقا بينهما ، وفى البداية لن تستطيع أن تخمن نتيجة المعركة ، حتى ترى بعـــد قليل بوادر مشروع الكورنيش الجديد الذى ستزحف به رقعة الارض داخل النيل ٠

***

الفنادق الضخمة التى رأيناها كلهـا مغلقة ٠٠ والسـبب أننا فى الصيف ، وهذه الفنـــادق من فنادق الدرجة الأولى التى تعتمد على أعلى طبقات السياح ، ومعظمهم فى ارذل العمر يبحثون اساسا عن الصحة ، والعلاج فى أسوان له موسم محدد هو أشهر الشتاء ٠

ولكن أسوان تزدحم بالأجانب فى يوليـــو ٠ انك تلتقى بالوجوه الأوروبية فى كل مكان ٠ ولسنا نقصد الروس ٠ فانت بعد دقائق من وصولك الى المدينة ستعرف كيف تميز الروس عن غيرهم من أبناء أوروبا ٠ فهم أولا يمتازون بالاجسام المتينة ٠ وبالأناقة ٠٠ الرجال يرتدون قمصانا مشجرة وبنطلونات على أحدث مودة وأحذية مدببة ٠٠ والنساء فى الصباح يحملن سلالا كبيرة تزدحم بمشترياتهن من السوق ٠٠ ارلهذا فهن لسن بالقطع سائحات ٠

فالمرء هنا يندرب على تمييز السياح الاجانب من هيئتهم وملابسهم ٠٠ فغالبية سياح هذه الفترة من السنة هم شبان جاءوا مشيا على الاقدام ٠ أو فى سيارات صغيرة أو على دراجات بخـــارية وتراهم بالقمصـــان والبنطلونات القصيرة وغالبا تكون ذقونهم طويلة وملابسهم مهملة وهم شباب بعيون ذكية تتطلع فى كل اتجاه وتبدو فيها حمى غريبة ٠ تدفعهم فى جميع أنحاء العالم دون أن تكون لديهم موارد كافية ٠ وهم يتجهون على الفور الى بيت الشباب المجاور للمحطة حيث يقضـــون ليالى بقروش معدودة ثم ينطلقون بالنهار فى كل مكان ويذهبون الى السد ٠ ويعودون مبهورين ليجلسوا على المقاهى البلدية ٠ وفى حرارة الظهر يتمددون فى الحدائق العامة دائخين ٠

على أن هناك فئة أخرى من السياح ، وسط بين أثرياء الشـــتاء أو

مرضاه ٠٠ وشباب الصيف أو افاقيه ٠ وهم يأتون في الرحلات الجماعية ٠ التى تنظمها مكاتب السياحة فى جميع أنحاء العالم أو يأتون فرادى فى هذا الوقت بالذات ليستفيدوا من اسعار الصيف المخفضة ٠ وهؤلاء لن يجدوا الا مكانا واحدا فى استقبالهم هو فندق قديم بعض حجراته مكيفة الهواء ومعظم أسرته قديمة ذات عواميد وناموسية ٠ واسمه جراند أوتيل ٠٠

ولهذا فالحياة فى جراند أوتيل تجرى بطريقة غريبة ٠٠ الناس نلتقى للحظات ثم تفترق الى الابد ٠٠ عشرات الغرف تمتلىء وتفرغ بعد ليلة ٠ عشرات الوجوه تظهر فى الشرفات وفى البهو مرة واحدة ثم تختفى ٠٠ ليلة تمتلىء صالة الطعام عن آخرها وليلة أخرى لا تجد بها أحدا ٠

ووجوه زوار بلادنا وزائراتها متوردة من الانفعال ٠ هل السبب هو نشوة رؤية مكان جديد ، أو هو حر أسوان الذى يؤجج المشاعر ؟!

***

أمام جراند أوتيل قوارب تحملك الى الضفة الأخرى ، ويتوقف بك القارب وسط النهر على شاطىء جزيرة طويلة رفيعة اسمها « الفنتين » ٠ هى أقدم الأماكن فى أسوان ، وكان الفراعنة يسمونها «جيب» وهى كلمة هيروغليفية معناها « الفيل » ولعل السبب فى هذا الاسم الصخور القائمة وسط النهر امامها التى تشبه الفيلة السابحة ٠ وفى أحيان كثيرة كانت هذه الجزيرة هى النقطة التى تعين حدود مصر أيام الفراعنة ٠

وفى هذه الجزيرة متحف صغير من أربع غرف ٠٠ تتصدره تماثيل اله قديم تجسد فى صورة خروف ٠٠ وفى الحوامل الزجاجية مجموعة من الأدوات القديمة بها تماثيل صغيرة جدا توضع مع الميت لتنوب عنه فى أداء الأعمال الشاقة فى الحياة الأخرى ٠

ويقول لك الجميع : يجب أن ترى قبر اغاخان الذى يرتفع عاليا على الناحية الأخرى من النيل، وتصعد اليه فى طريق طويل يمتد كيلومترين ٠ تطل منه على أروع منظر يمكن أن تقع عليه عين ٠٠ قط لم تجتمع من قبل فى أى لوحة أو منظر هذه الألوان التى تراها من هنا ٠ بعيدا الى اليسار سلسلة من الجبال الحمراء الداكنة ٠ (بسبب مناجم الحديد) ٠٠ أمامها على الناحية الأخرى التى يقع عليها قبر الاغا ، جبال رملية صفراء ٠٠ وبجوار الجبال عمارات بيضاء جديدة ٠٠ ثم فندق رائع بواجهة صفراء لامعة ٠٠ وتحته يربض قصر البيجوم الناصع البياض بنوافذه الخضراء

.. تليها فى النيل الصخور الجرانيتية السوداء الضخمة .. ثم فندق كتراكت بواجهته البنية ، حيث كان الملك السابق فاروق يحتفظ بجناح خاص فيه ..

ويحملنا القارب من جديد الى جزيرة النباتات .. وفى القارب فتاة فرنسية معها كتاب سياحي شهير هو « المرشد الازرق » .. والكتاب آخر طبعة وتاريخها سنة ١٩٥٦ . ويقول الكتاب ان عدد السكان في اسوان ٣٥ الف نسمة وان ثلاثة أيام تكفى لزيارتها هى وضواحيها . يوم للطواف بالمدينة والسوق ، ويوم للخزان ، ويوم لجزيرة الفنتين .

ونحن نكتب هذا الكلام بعد أن قضينا في أسوان وضواحيها « ثلاثة شهور كاملة » لم تكن كافية كى نرى كل شيء .

والكتاب الفرنسى لم يذكر بالطبع شيئا عن السد..ودهشنا عندما وجدناه يتحدث عن زيارة حديقة كتشنر .. واكتشفنا أنه يقصد حديقة النباتات الاستوائية . التى كانت تحمل فى الماضى اسم القائد البريطانى الذى قاد الجيش المصرى وغزا السودان .

كم يبدو هذا التاريخ غريبا اليوم ..؟!

ويحملنا القارب مرة أخرى الى تلك العيون الغامضة فى الجبل التى تراها من كل مكان فى اسوان وترى السلم الطويل المؤدى اليها .. وصعدنا طويلا وسط الرمال .. ان العيون الغامضة مقابر نبلاء وامراء عاشوا هنا خلال المملكة القديمة .. المقابر ضيقة ومظلمة .. جدرانها ملونة بالسواد من اثر محاولات الرومان احراق المعابد والمقابر .. وعلى الحائط بقايا نقوش رائعة تروى أربع رحلات للأمير حرخوف الى بلاد النوبة وكيف عاد فى الرحلة الرابعة بقزم مرح ليرقص أمام الملك الطفل بيبى الثانى . وعندما علم الملك الطفل بأمر القزم كتب الى حرخوف قائلا :

« ترغب جلالتى فى امتلاك هذا القزم اكثر من جزية بلاد بنت واذا أحضرته الى القصر سليما فسيجزيك جلالتى خيرا .. » وبلغ اعتزاز حرخوف بهذه الرسالة انه أمر بنقشها على جدران قبره حرفا حرفا .. فسجل بذلك اول رحلة استكشافية الى السودان .

الرائحة العفنة فى المقابر لا تجعلك تطيق الوقوف أكثر من دقائق .. وتسرع الى الخارج .. ولا تدرى أتهرب من العفونة .. أم تهرب من التاريخ لقد كان أصحاب هذه المقابر من الملوك والأشراف .. يلبسون الميت منهم

التاج والحلى والسلاح ويزودونه بالطعام والشراب بينمـــا يشنق عبيده أنفسهم ويرقدون تحت أقدامه ليكونوا فى خدمته فى حياته الأخرى ٠٠!

***

خطوة بعد خطوة ٠٠ الشمس تختفى ٠٠ والقارب يتجه الى أسوان ٠٠ وتظهر أنوار المدينة من بعيد ٠٠ ويمر القارب بالفيلة الرابضة فى الماء فيمشى ببطء وحذر ويكاد يقف ٠٠ والسكون شامل ٠٠ وتتطلع الى سماء بدأت تتلون بالحمرة فوق الجبل ٠٠ وتفتح صدرك لتســــتنشق الهــواء النقى الجاف ٠

ونعود الى المدينة ٠٠ الى الانوار فى كل مكان ٠٠ ونغادر القارب الى الرصيف وسرعان ماتضيع فى جموع الزحام الذى تتخلله مجموعات من السيدات الروسيات ينتظرن الأوتوبيسات لتحملهن الى مساكنهن فى المنشآت السكنية العديدة بالسد وقد أتممن جولتهن اليومية فى السوق وملأن سلالهن بكل السلع ٠

ان أعماق المدينة لم تتغير منذ أيام الفراعنة ٠ لقد كانت تسمى أيامها « سوانت » ٠٠ ومعنى الكلمة الهيروغليفية هو « السوق » !

***

وحينما يذوب العائدون فى شوارع أسوان الغفيرة ودروبها الضيقة الملتوية تضع اسوان رأسها فوق ذراعها الجرانيتى وتنام كأنما لم يكن شىء يستحق أن يصحو من أجله الانسان ٠

ان اسوان لا تعرف السهر ٠٠ وليلها هادىء صامت ٠٠ يتمدد فيه الرجال فوق الحشائش أو المقاعد الحجرية على النيل ٠٠ ويسير الشبان فى هدوء وحزن فى شوارع معسكر الذكور الكبير ٠

وفى البداية كنا نتصور ان الآلات والعمــــل والانشــاءات والخبرة الجديدة قد نجحت فى ان تغير اعماق هذا المكان النائى من البلاد ٠٠ ولكن المدينة الجرانيتية السمراء اثبتت انها ـ الى الآن ـ اقوى من كل آلة ٠

ان شباب اسوان الأسمر ، شباب من لحم ودم المدينة الصامتة ٠٠ انه شباب نحيل هادىء يتجول فى الشوارع مندهشا ينظر فى حسد الى محطات الأوتوبيس التى يتجمع حولها الروس صاخبين يحملون أكياسهم فى لهفة للعودة الى مدنهم الصغيرة حيث يعرفون كيف يستمتعون بكل دقيقة من وقتهم بعيدا عن المدينة السمراء المتجهمة ٠

***

منتصف الليل فى اسوان ..

اسوان نائمة تماما .. لا أحد فى الشوارع .. المحلات مغلقة .. اسوان تستيقظ فى السادسة صباحا وتنام مرتين .. الأولى من الواحدة ظهرا حتى السادسة .. والثانية من منتصف الليل الى الصباح .

الحديقة الرفيعة التى تتوسط شارع النيل مزدحمة بمئات الانفار الصعايدة الذين يعملون فى بناء الكورنيش .. وقد راحوا فى سبات عميق بعد يوم عمل شاق .

فجاه تتراقص انوار قرية من بعيد .. ويرتج شارع النيل الهادىء بالضجيج . ويعبره طابور من السيارات الضخمة تحمل اعدادا ضخمة من الرجال الى خارج اسوان .. انها وردية جديدة ذاهبة الى السد .. المدينة الأخرى التى لا تنام دقيقة واحدة فى الساعات الاربع والعشرين .. !

الطـريـق

من اسوان حتى الموقع طريق من الاسفلت متحوت فى الصخر ، فى الجبل ، وأحيانا لا يقوى الطريق على اختراق الجبل فيدور حوله بمكر وغضب ، ويصعد ويهبط فى انحناءات مفاجئة .. يصعد حتى قمة التل التى لا يستطيع اختراق بطنها ويهبط مسرعا من ذروتها الى أسفل اسود لامعا مكفهرا .

هو بالليل شىء جميل وغامض تنيره على طول ثمانية عشر كيلو مترا آلاف من المصابيح التى أنبتها الطريق على جانبى جسده فتبدو من اعلى بقعة كبيرة من العيون المضيئة التى تحرس الطريق. كأنها تخاف ان ينزلق هذا الشىء الاسود الى الصحراء المظلمة المستعدة المتحفزة ابدا لاسترجاع ما اغتصب منها ..

وهو بالنهار ، يتصبب عرقا وجهدا ، ودخانا وغبارا وضجة .. لاتوجد به قطرة ظل أو قطرة ماء .. انه مجرد طريق صحراوى متعب ، مجبر أن يحملك الى حيث تريد ..

لكنه بالليل يقودك فى رفق ، ويفتح لك قلبه المستطيل الصلب ويتنهد معك ، يبتسم أحيانا ، وتلمع اسنانه الصخرية تحت عيونه المضيئة ويتقاذفه الصعود والهبوط مثلما تتقاذف الانسان الحسرة والفرح .

**

ان رحلة الطريق تبدأ بالبحث عن سيارة . السيارة تقطع الطريق عادة فى أقل من ثلاثة أرباع الساعة. وليس معنى هذا ان تتصور انه يمكنك الذهاب الى السد والعودة منه فى ساعتين . فليس هذا ممكنا الا فى حالة واحدة فقط . اذا كنت تملك سيارة (ملكية خاصة او عامة) .. اما اذا كنت من عباد الله امثالنا .. فالذهاب والاياب يستغرق اربع ساعات على الأقل . وقد يأخذ منك يوما كاملا .. ويضيع منك فى محاولة اصطياد عربة .

وهذا هو بالضبط السبب فى ان ملوك السد غير المتوجين هم

السائقون • لا تصدق من يقول لك انه يكفى أن تشير باصبعك لأى سيارة فى الطريق فتقف لتأخذك • لقد تخشبت أصابعنا من الاشـــارة ونحن ضائعون فى أطراف الطريق الطويل ولا احد يقف لنا •• ولـــكنك فى النهاية ستدرك صعوبة الامر •• فلو وقف كل سائق لمن يرفع اصبعه فى الطريق لما انتهى ابدا ••

الشخص الوحيد القادر على أن يوقف أى سيارة فى أى وقت هو جندى البوليس الحربى ••• ان جنود البوليس الحربى بشاراتهم الحمراء ينتشرون فى كل مكان كالملائكة • وحول كل منهـــم تلتف حلقــة من الضائعين فى الطريق ينتظرون الفرج ••

وتأخذنا السيارة فى الطريق •• وتقطع مسافات شـــاسعة فى صحراء كاملة قبل ان تواجهنا خضرة مفاجئة وعدة منـــازل •• وحائط ضخم به ١٨٠ عينا •• انه خزان اسوان القديم الذى وقف اميل لودفيج امامه مبهورا منذ ثلاثين عاما بالضبط وكتب يقول انه شاهد اعظم خزان فى العالم •

وبجوار الخزان محطة الكهرباء الضخمة التى شيدت فى عام ١٩٦٠ لتنير السد ومدينتى اسوان وقنا •• ومصنع كيما •• ويكفى لنتصـــور كمية الكهرباء التى تنتجها هذه المحطة ان تعلم ان عنبرا ضخما من الآلات فى كيما يستهلك من الكهرباء قدر ما تستهلكه القاهرة فى يوم ••

وتمتد الصحراء من جديد وفجأة تجد نفسك وسط مدينة سكنية كاملة •• صفوف من العمارات الحديثة الضخمة التى يبرز جهاز التكييف من كل طابق فيها كأنما هو خاتم ختمت به كل عمارة. وتستمر هذه الصفوف عشر دقائق والسيارة تنهب الارض وتختفى العمـــارات وتعود الصحراء • كل شىء تراه هنا لم يكن شيئا منذ أربع سنوات • مدن جديدة تظهر تحمل أسماء غريبة • السيل • هنا يعيش الروس والمصريون فى بلكونات متقابلة • ثم كيما • مدينة أكثر أناقة من السيل ليس لها علاقة بالمصنع الذى يحمل نفس الاسم سوى علاقة الملكية • فهى تضم العاملين فى السد • وغالبيتهم من الروس • وتمر بنا لوحات خشبية تحمـــل اعلانات أفلام تعرضـــها دار للسينما هنـــا • وتختفى المدن الجـــديدة • وتصبغ الشمس كل شىء امامنا باللون الاحمر • وعلى طول الطريق تمتد مخازن للآلات وقطع الغيار وتكاد تظن انك وصلت الى آخر الدنيا ••

ان الطريق الصلب الصـــارم يســـتسلم تماما فى الكيلومترين

الاخرين ويتخلى عن كبريائه السوداء المسفلتة • وينهار عند حـــدود الموقع ، الى طريق ترابى مزعج ملىء بالغبار والضجيج والاحجار والآلات والاصوات والاشياء والناس• انه يستسلم باستكانة فتسير فوقه باقدامها الصلبة الجرارات والكراكات وباقدامها البشرية الحافية والمنتعلة الناس والرجال والاطفال والنساء . وبالعجلات المطاطية تصفع وجهه جميع أنواع العربات • انه يصبح طريقـا خطرا فقد تصدمك فى أية لحظة غير حذرة عربة أو حجر أو كراكة او جرار او ونش او ماســـورة ••• انه يسلمك للسد ••

وكأننا دخلنا فجأة على أحد أحياء القاهرة الشعبية. .جامع ومقهى بلدى وزحام •• واعلانات سينما ولافتات وسيارات ومستشفى وبيوت صغيرة بلا نوافذ واكشاك مرور واكشاك سجائر واكشاك من الخشب. والطين والصفيح والاحجار والقماش حيث يباع الفول والجبن والخبز والشاى واللحم والعدس والطماطم والبطيخ المشقوق حيث يشرب العمال الجوزة مع الشاى ويجلسون لحظات راحتهم •

وتبطىء السيارة أمام لوحة بيضاء ضخمة • انها اللوحة الشهيرة التى رآها كل مصرى وكل روسى فى الصحف والســـينما .. وتحمل هذه الكلمات : « يابناة السد ، باق على تحويل مجرى النيل كذا يوم » ، هى العبارة التى سجلت يوما بعد يوم سباق الزمن الرهيب مع الطبيعة الذى انتهى فى مايو ١٩٦٤ •• ان اللوحـــة مازالت تحتفـــظ بنفس العنوان الذى يخاطب ٢٢ ألفا من العاملين •• وتحتها هذه العبـــارة : « شكرا ، رعاكم الله واعانكم على المرحلة التـــالية » • والتوقيـــع (جمال عبد الناصر) •.

وبجوارها لوحة مماثلة تحمل نفس الكلمات بالروسية ••

السيارة تسير ببطء • الطريق هنا صعب للغاية • والزحام شديد • وبرغم هذا فالمفهوم أن السائر مسئول عن نفسه . ولهذا لابد أن تمشى فى وجه السيارات لا امامها كى لا يحدث لك شىء وتراها جيدا على مبعدة• فلا وقت هنا ••

***

زوار السد يؤخذون الى النموذج أولا : أمام النموذج حمل مرافقنا عصا طويلة ، وجعل يشرح لنـــا مرة على النمـــوذج ومرة على عشرات الخرائط المعلقة على الجدران الدائرية • وهو يتحدث بسرعة السيارة التى

جاءت بنا ، ونحن نتابعه بأعيننا في تركيز شديد نحاول ان نفهم الامامى من الخلفي والمنسوب الذى يرتفع من المنسوب الذى ينخفض ٠ وتنتقل عيوننا مع العصا التي تروح وتجيء بين الخرائط والنموذج ، ولا ندرى موقع السد من النموذج ونخاف ان نسأل سؤالا يكشف عن بلاهتناونلوم انفسنا على أن دراستنا لم تكن علمية حتى نتمكن من استيعاب سيء من هذا الحديث .. والشاب ماض ، يتوقف يرد، في تفه كلمات الشرق والغرب وقناة التحويل والمجرى القديم ومحطـــة الكهرباء ٠٠ ونتعلق بعبارة واحدة قالها بدت اكثر بساطة ونرددها لانفسنا في عصبيةلنفهم شيئا ٠٠ السد اكبر من هرم خوفو بســـبع عشرة مرة ٠٠ ومن خزان أسوان بثلاثين مرة ٠٠٠

ورغم هذا ، لم تكد تسنح لنا الفرصة حتى هربنا من مرافقنـــا الشاب ٠٠ !

**

مثل الاوعية الدموية الصغيرة في جسمك التى تنتشر في كل مكان وتلتقي وتتباعد في اكثر من مكان وتدوخ اذا حاولت أن تتبع بداياتهـا ونهاياتها ٠٠ تنتشر الطرق في هذا العالم العجيب ٠ فوق بعضها وبجوار بعضها ٠ مازلنا نعجب كيف يتبين الناس معالمها ٠ وكل الطريق في منطقة العمل ٠٠ الموقع ٠٠ غير مرصوفة لانها غير دائمة ٠ بعضها يختفي فجأة ، وبعضها يظهر فجأة كلها ستختفي بعد سنوات عندما يرتفع الكائن الضخم ليغطى كل هذه المساحة ٠ متى ابتلعتك احدى هذه الطرقات اصـــبحت معرضـــا لان نتوه تماما ٠٠ ولا تعرف لك شمالا من جنوب أو شرقا من غرب ٠

والشرق والغرب كلمتان تترددان كثيرا هنا ٠ وهما كلمتان ليس لهما أى مدلول سياسى على الاطلاق ٠٠ النيل بمجراه القديم هو الفاصل بين الشرق والغرب ٠٠ العمل الأساسى يجرى في الشرق ٠ هنا قنـاة التحويل .. والانفاق ومحطة الكهرباء .. وبجوارها مصنع الخراسانة الضخم ومئات الورش والآلات ومستعمرة سكنية للعمال والمهندســـين ومستشفى وسينما تحمل اليها مقعدك وترى فيها فيلما جـديدا كل ثلاثة أيام مع جريدة سينمائية ولم تتغير منذ ثلاث سنوات عبارة عن رقص لنجوى فؤاد . وأخيراً الطريق المرصوف الذى يحملك الى اسوان ويمر بمدن مسكونة أخرى هي كيما والسيل .

وفى الغرب توجد مستعمرة سكنية أنيقة اسمها صحارى سيتى . مدينة جميلة نظيفة بها نادى روسى وصالة للبلياردو وسينما ومطعم يقدم وجبات للمهندسين بأسعار زهيدة ومكتبة يزدحم عليها طابور العاملين فى السد يستعيرون ما بها من كتب للكبار والاطفال .

فى الغرب أيضا الوزارة .. او الهيئة .. أو التفتيش .. عمارة ضخمة على ربوة عالية . تراها من أى نقطة فى الموقع .. هذه العمارة لها بابين رئيسيين على الجانبين . كل باب يقود الى الأدوار الثلاثة .. الباب الأيسر يقود مباشرة الى مكاتب الروس .. وفى البداية يخيل اليك أن العمارة تنقسم الى عمارتين احداهما للمصريين واخرى للروس . ثم تكتشف ان لكل مسئول مصرى هنا قرينا آخر روسيا فى نفس المكان من الناحية الاخرى واحيانا كثيرة فى نفس الغرفة .

وينحدر الطريق أمام الوزارة فى شكل دائرى .. وتمتد امامك على الفور عدة طرق .. وقبل عام واحد كان الذاهب الى الشرق يقطع طريقا دائريا طويلا يستغرق حوالى الساعة يعبر فى أثنائها خزان أسوان . ومنذ مايو ٦٤ أصبح هناك طريق صغير لا يستغرق بالسيارة غير دقائق .. طريق طوله الآن كيلو متر واحد .. على جسم السد .. !

معركة يومية

وسؤال بلا إجابة !

- ١ -

بعرض النيل ، امتد شريط من ركام الصـــخور من الشرق ..
وشريط مماثل من الغرب .. وبينهما ظلت فجوة واسعة يتدفق منها ممر
مائي من الجنوب الى الشمال .

ووقفت على الشريط الركامى فى الشرق خمسة عشر عربة روسية
قلابة ضخمة ممتلئة بالاحجار .. ووقف فى الغرب عدد مماثل ..

وبدأت الثلاثون عربة تلقى اطنانا من الصخور فى فجوة الماء التى
تفصل بين الشرق والغرب ، وعندما افرغت العربة الاخيرة حمولتها التحم
الشريطان الركاميان وتحولا الى شريط واحـــد من الاحجـــار والرمـال
والتراب ..

هكذا أغلق لاول مرة فى التاريخ مجرى النيل العظيم ، ليكون أول
عابريه جمال عبد الناصر فى ١٤ من مايو ١٩٦٤ .. بينما كان السائقون
يرمون بأنفسهم فى الماء بملابسهم ويسبحون خطوات داخـل النهر ثم
يعودون ليحتضنوا الجسر الترابى ..

وهدأت الحركة تماما فى النيل الذى ظل يموج طوال ثلاث سنوات
بالصنادل والجبارات التى تحمل الصخور من قناة التحويل ومحـــاجر
الجرانيت الى قاع النيل .. وزحف الرجال فوق الجسر .. فمنذ تلك
اللحظة بدأ العمل على أرض راسخة ، ثابتة كالطود .

***

ان السيارات التى تشبه حيوانات ما قبل التـــاريخ العملاقة ...
ما زالت تنطلق كل ساعة من الجاراج ـ المدينة الضخمة التى يصدر عنها
دائما صوت كزئير الاسود ـ وتأخذ طريقها على الفور الى المحـاجر التى
تحيط بجسم السد من كل ناحية ..

وفى كل محجر تتصدى للجبل كراكة روسية وعدد من العمـــال
والفنيين المصريين يفجرون الصخر .. وتغرف كباشة الكراكة من الجبل
لتملأ صندوق العربة .. ثم تنطلق العربة الى جسم السد ..

وبعد دقائق تصبح السيارات مجرد علامات متحركة ·· فوق الطرق التي ترتفع كخيط رفيع ·· ويبدو الافق كله خطا متعرجا من المرتفعات المتقاربة الملونة التي تحيط بالمكان كله كقوس هائل ·

وفي قمة هذا الافق تقف عدد من ماكينات التخريم مشرعة مثل المدافع المضادة للطائرات ، تحفر الثقوب في الجبل ·· وتقف السيارات لترتفع مؤخراتها عموديا · وتلقي بما تحمله من تراب وطمي وصخور على الارض ، فتتسلمه الهراسات والبلدوزرات وتدكه دكا في جسم السد ·· وتفرغ المواسير ـ التي تمتد في كل مكان ـ ما في جوفها من رمال ومياه في اندفاع وشباب وحيوية لتغطي جزءا من جسم السد وتحيله الى مفرش أصفر ذهبي يلمع تحت أشعة الشمس القاسية ·· لينتصب بعد ذلك أول سد في العالم ملبس بالرمال ··

ان مواسير التجريف هذه ، طريق اخر بطولى ، من طرق النقل في السد ·· فهذا الاختراع الروسى ، الذى يطبق لاول مرة خارج الاتحاد السوفييتي ـ ينقل ½ مليون متر مربع من الرمال شهريا ·· الى جسم السد ··

وفي داخل ممرات التفتيش التي تبدو من اعلى كقطارين طويلين من عربات السكك الحديدية تعمل آلات الحقن في صب كميات من الطمي السائل المختلط بمواد اخرى ·· في مواسير تحملها الى اعماق مائتي متر تحت سطح النفق ·· لتصنع بتماسكها مع قاع النيل والاحجار الملقاة حائطا من الصلب السميك لا يمكن ان تتسرب منه قطرة مياه واحدة ·

ان الكفاح ضد التسرب هو اخطر مهمة يواجهها السد الآن ·· وفي المبنى الذى يطل من القرب على كل شبر في السد ، توضع الخطط وتحسب قوة المياه وقدرتها على التسرب وطاقتها ، وتعدلها تحصينات وخطوط دفاعية في المقدمة والمؤخرة ، وآبار بطلمبات لنزح المياه، واجهزة اختبار وحلول احتياطية من داخل ممرات التفتيش ثم خط الدفاع الضخم ، الذى يقام وسط جسم السد · على عمق مائتي متر حتى يلامس القاع الجرانيتي ·· مكونا بذلك اضخم واعمق ستارة عرفها انسان هذا العصر ·

***

وتعود السيارات التي انتهت ورديتها الى حظائرها ، تحمل على

أجسادها آثار العمل الشاق ٠٠ غبار وذرات تراب وطمى وطين وأسمنت وخدوش وأبواب مكسورة وعجلات منتزعة .. ويصبح الجراج مثل مستشفى الميدان ٠٠ مصابون ينتظرون علاجهم ليعودون مرة أخرى الى المعركة ، أو مرضى تحت الملاحظة ، يمرون بفترة النقاهة ٠٠ ينتظرون أوامر العودة ٠٠

والعمل لا يتوقف والاوامر لا تكف ٠٠ كل شيء فى حركة دائرية .. .. دائرية وصعود الى أعلى .. ويتسلق عشرات من العمال ممرات التفتيش الماردة النائمة ٠ وفى ايديهم نيران اللحام ليلحموا حديد التسليح الدائرى استعدادا لصب الخراسانة ٠٠ والناس تقذف بكميات من المياه من الخراطيم على الطمى الذى تهرسه الهراسات وخراطيم أخرى ممتلئة بهواء مضغوط قوى ينظف الصخور التى فجرت بالأمس استعدادا لالقاء الخراسانة فوقها ٠ وكواسير التخريم تحفر فيها الثقوب لتستقبل الخراسانة التى يلتهمها السد وجبة يومية لا غنى له عنها ٠٠ والاخشاب تعد وتصب عليها الخراسانة فى الحال ٠٠ وكل لحظة وكل ساعة ، وكل وردية وكل يوم ، وكل ليلة ، يرتفع جسم السد ، يحتضن الطمى والرمال والاحجار، ويستقبل الآف العربات والصعايدة والروس ووكلاء الوزارات والمهندسين والفنيين ، ويحمل فوقه البلدوزرات والهراسات والعربات ومكن التخريم والديناميت والخراسانة والاخشاب ويتصبب الناس عرقا تحت وهج شمس حارقة وسماء لا تعرف الغيوم ، وغبار يتطاير ، وناس تأتى ، وآخرون يذهبون الى كيما والسيل وصحارى والسينما والمطاعم والجراجات والتركيبات والورش وكورنيش النيل بأسوان ، واجازات تمضى بالناس الى مواقعها الاصلية فى جرجا وقنا وسوهاج واسيوط والاسكندرية والمنصورة والقاهرة ٠ ويعود العالم لينضغط ويلتحم من جديد على هذه الارض فى مواجهة يومية بين الانسان والصخر والجبل والطمى ، وتحصينات ضد المياه ، والستارة والانفاق وكباشة الكراكة التى تعض الجبل يوميا وتجذبه وتلقيه ارضا ٠

- ٣ -

فى أول مرة ذهبنا الى السد قادتنا اقدامنا الى قناة التحويل .. والسور العالى الذى يطل على محطة الكهرباء ٠٠

وعندما اقتربنا من السور وانحنينا فوقه وتطلعنا الى اسفل ، تملكنا نفس الشعور .. فقد تماسكت أيدينا وتراجعنا على الفور ..

دارت رءوسنا .. وارتعشت مفاصلنا ..

فبعيدا الى اسفل ، كانت هناك خلية نحل .. مستحيل ان تستطيع ان تفهم ما يجرى او تتبع شيئا او شخصا من البداية الى النهاية .. الناس في حجم النمل ، منتشرين فى كل مكان . دوائر حديدية ضخمة . هى توربينات المستقبل ، وعشرات من الكبارى والسلالم الصغيرة التى تصعد وتهبط فى كل اتجاه وكل ناحية . والناس تتحرك عليها وتعجب كيف يستطيع كل شخص أن يفهم أوله من أخره ولا يختلط بالآخرين وتضيع ملامحه الخاصة بينهم .

والادهى من ذلك ، الصعيدى الاسمر باللفافة التقليديه فوق رأسه والجلباب الابيض الملموم حول ساقيه ، الذى ظهر فجأة تحتنا ، وتطلعنا اليه جميعا برعب . كان يريد ان يهبط الى قاع الخلية على مواسير طويلة عمودية . وامسك المواسير بيديه وجعل يهبط ورأسه الينا وعيناه علينا وهو يبتسم ، ويهبط ويبتعد ، ويصغر شيئا فشيئا حتى لم نعد نتبين وجهه وان كنا نرى نقطة جسمه البيضاء التى استقرت اخيرا فى القاع وسرعان ما تلاشت بين مئات النقط الاخرى .

ولم يكن بوسعنا ان نفعل مثله لنصل الى قاع خلية النحل .. فتحولنا الى الطريق الدائرى المنحدر المؤدى الى محطة الكهرباء ..

والى يميننا جرت قناة التحويل .. التى استمر العمل فى حفرها ثلاث سنوات .. يطل عليها جبل شامخ مازالت تبدو على حائطه آثار المعركة الهائلة التى دارت بينه وبين الانسان . والى اليسار جبل آخر ما زال رمزا .. فهو لم يدمر الى تصفين بل نحت من اساسه على عمق ٨٠ مترا ، كى تتسع القناة لمليار متر مكعب من الماء فى اليوم الواحد .

ووصلنا اخيرا الى الكوبرى الذى اصطلحنا على تسميته منذ اليوم الاول بالبلكونة . فمنها تطل على القناة وبوابات الانفاق الخلفية ومخارجها .. وتطل على قاع خلية النحل ..

والبلكونة نفسها لا يوجد بها موضع لقدم . فهى مزدحمة بالكراكات والاوناش الضخمة التى تتحرك على قضبان حديدية لترفع بوابات الانفاق ، وهى اضخم بوابات من نوعها فى العالم ، اذ تزن الواحدة منها ٢٣٠ طنا ..

وفوق احدى الكراكات الضخمة ، كتب احد العمال المصريين بخط

متعرج : « احترس من سلطان » •• وهكذا نالت الكراكة القــادمة من موسكو اسما مصريا يدل عليها • فهي تسيطر على المكان تماما ، كل شيء يتوقف على الخطاف الحديدي الهائل الذي تحمله ويدور في كل اتجاه ويصعد ويهبط مع صفارة الانذار التي تطلقها الكراكة محذرة من ••• سلطان •• !

ومن فوق هذا كله يحلق الونش الهوائي الهائل الذي يقف نصفه فوق الجدار الشرقي المرتفع ، والنصف الاخر في الناحية الاخرى • غرب القناة ويصل بينهما سلك صلب قوي تنزلق فوقه علبة ضخمة تتحرك أوتوماتيكيا وتحمل خمسة أطنان من الخراسانة لتلقي بهــا في عشر دقائق على مداخل الانفاق •• حيث تبني قواعد التوربينات امام العيـون التي فجرت في الجبل ••

وفي كل مكان تلمح شرارات النار منطلقة من أفواه خراطيم اللحام• نار زرقاء يقبض عليها بيد مدربة صعيدي كان يســير خلف الجاموسة ، وتركها في طريقها ، وجاء يكتشف طريقه هنا •

وبدأنا نهبط الى أسفل ••

وحملتنا ستون سلمة الى ركن صغير انزوى فيه بائع شاي •• كأنما يعرف انك عندما تصل اليه تكون قد بدأت تلهث من العطش •• ونعود الى السلم الحديدي مرة أخرى •• وعندما ينتهي يبدأ سلم خشبي يصل بنا الى قاعدة التوربينه •• خمس درجات فقط ، وبعدها تصبح بالضبط مسمارا صغيرا أو قطعة رفيعة من الخشب أو انسانا بجوار دائرة هائلة ، قاعدة من الخراسانة المسلحة تستعد ليضعوا فوقها التوربينة التي تزن مائتي طن ••

وندور حول قاعدة التوربينة ، ثم نواصل الهبــوط من جديد •• فنحن لم ننته بعد ••

أربعون درجة من سلم عمودي نهبطها ونحن نلهث •• ثم نشــعر فجأة بالهواء في ظهورنا •• وصوت « تش تش » قوي كالهواء المضغوط يتزايد كلما اقتربنا من النفق •• حتى يضرب الصوت والهواء سيقاننا من فتحة في ماسورة وبعد خطوات تنزل قطرات الماء على رءوسنا ، ويبدأ النفق ••

رنين ضخم مفاجيء كأن ألواحا هائلة من الحديد تسقط أو تضرب بالحديد ، وفرقعات مدوية ، وخراطيم ضـخمة وكابلات وموتورات ••

وبرميل بالعرض ٠٠ والمكان يظلم رويدا رويدا ٠٠ ويختفي الضوء الآتي من الخلف ٠٠ ثم ذلك ونحن مازلنا في مقدمه النفق التي تمتد ٣٠ مترا، وفوقنا في السقف تلمع شرارات اللهب التي يصـــوبها عامل لحام الى الشبكة الحديدية التي تحمي الجدران ٠٠

العمل يجرى على قدم وساق داخل النفق الذى لا يعرف العالم انفاقا اخرى في مثل قطره (١٥م) ، في أى مكان منه ٠ العمال يفكون أسنان الكسارة الضخمة ليضعوا لها أسنانا جديدة ، وسرعان ما يستقبل قمعهــا الضخم كتل الجرانيت الضخمة ٠ وتدور الكسارة لتفتتها وتحولها الى أحجار صغـيرة في حجم الطـــوب الذى يشوطه الاطفـــال بأقدامهم ٠٠ وبجوارها كانت تقف في شموخ كراكة تغرف بجردلها مئات الاطنان من الاحجار التي تتهدم من العمل اليومي ٠ في توصيل النفق المائل بالنفق السفلى ٠٠ وحجرة مصفـــحة من الصلب في مقدمتها مقعد يجلس عليه صعيدى امام ازرار وأشياء يتحكم فيها ، ويدفع الجردل ويسحبه ويرفعه ويخفضه ويلف بالكراكة نفسها حول نفسه ٠٠

والناس تتحرك بسرعة ولا تقف تحمـــل عروقا من الخشب ومن الحديد ٠ ويتقدم منا بلدوزر يخوض في الماء ٠٠ ونلتصق بالحائط ليمر بنا عدد من العمال يحملون اخشابا على أكتافهم ٠٠ ونمر نحن بصناديق مغلقة كل صندوق رسمت عليه جمجمة وعلامة تحـــذير من الموت ومن الاقتراب ، وبداخل هذه الصناديق محولات كهربائية تمتد منها كابلات تغذى الآلات والمصابيح الموجودة داخل النفق ٠٠

لقد بدأ العمل في هذه الانفاق في أغسطس سنة ١٩٦١ ، وانتهت في مايو ١٩٦٤ ٠٠

وكان العمل يجرى في الوقت نفسه في حفر قناة التحويل ٠٠ أما ما يجرى الآن فهو حفر وبناء الانفاق المائلة ٠٠ وهي ســـتة أيضا مثل الاولى ، وتنتهى في مايو ١٩٦٦ ، والهدف منها أن يكون مدخل المياه أعلى من مستوى رسوب الطمي فيحال بين اندفاع الطمي الى التوربينات ٠٠ وهي المرة الاولى ـ أيضا ! ـ التي تستخدم فيها هذه الانفاق المائلة في العالم ٠٠

ان كل رجل من الخمسة آلاف مصرى وروسى الذين عملوا سنوات ثلاث في حفر هذه الانفاق ، ما زال يحمل حول عينيه دوائر ســوداء داكنة ٠٠

لقد كان حفر هذه الانفاق بالنسف عملا بطوليا حقا ٠٠ لان الجبل كان كائنا مجهولا لا تعرف متى وأين ينفجر ٠٠ ومن سيختار من الرجال ضحايا له ٠٠

وربما كان هذا هو الذى جعل أحد العمال ــ واسمه سعد محمود حمد ــ يصيح فى يوم انتهاء العمل فى الانفاق والتحويل :

ــ السد خلاص ٠٠ شطبنا ٠٠!

ــ ٣ ــ

فى الانفاق قالوا لنا هنا بكى الوزير وكان ابنه قد مات ٠٠ وفى الجراجات قالوا لنا : كان صدقى سليمــان يجلس هنــا طول الليل على الارض على اطار سيارة قديم ليرى العربات بنفسه وهى تخرج للعمل ٠٠

وفى محجر « الوزير » ، قالوا ان هذا المحجر كان استراحة يشهد منها كبار المسئولين العمل «من فوق» ، وعندما جاء صدقى سليمان حول الاستراحة الى محجر الى مكان للعمل لا ليشهد منه العمل ، وعلى كل محجر وفوق كل طريق حكاية جزء من طرفها صدقى سليمان ٠

لقد كان السد العالى فى حاجة الى فرقة من الرجال من نوع خاص٠٠ ولا توجد ترجمة انسانية لهذا « النوع الخاص » سوى أن الوزير ينسى انه الوزير التقليدى الذى فى أذهاننا ، وان المسئول يحمل هما أكثر ، يحمل هموم العمل كله وهموم زملائه ، ويكومها فوق رأسه ٠ وان الوزير يصبح فعلا أكثر الناس عملا وأكثرهم بذلا للطاقة ولدفع العمل ولمناقشة تفصيلاته بنفسه وبمعاونيه وبلا معاونين ، ويعيش كل ذرات حياته طول الوقت ، طول العمل ، طول الليل والنهار فى كل ركن ، وفى حنايا كل انسان ، يناقش ويحل مشكلة مهندس هجرته زوجته ، ويحــل قضية توفير الآلات وشراء عربات جديدة ، ويمزج الخبراء الروس بالصــعايدة المصريين ، ويقود الاوركسترا ويعزف أرقى سيمفونية شهدتها أرض مصر ٠

منذ السادسة صباحا ونحن نحاول أن نلقاه ، ذهبنا اليه فى محطة الكهرباء ، فقالوا لقـــد كان هنا وذهب الى الخلاطة ، وذهبنا الى خلاطة الاسمنت ، وقالوا لنا لقد ذهب الى جسم السد ، وفى جسم السد تتبعناه الى الانفاق ، ومنها الى المحاجر ٠ ولم نلحق به ، وفى النهاية قابلناه فى مكتبه ٠

أول انطباع فى عينيك من ملابسه ، من قميصه وبنطلونه ، أرخص قميص أبيض وأبسط بنطلون رمادى، رداء لاتراه على وزير أبدا ، وأذرعه عاريه سمراء ، وجسمه شامخ مبني ، الانطباع الثـانى من سمرة وجهه الداكنة وعينيه داخل جبهته كتمثال فرعوني هرب لتوه من أحد معـابد أسوان ، عملاق قديم أسمر فى لون الصخر وصلابة الجرانيت ..

وصوته الخافت وكلامه القليل يذكرك بالابطال الذين لم يترك لهم انغماسهم فى العمل فرصة اعداد الكلام وعادة ترتيب الالفاظ . وتحار فعـــلا ..

ونصف المقابلة معه كانت ضد المقابلة ! ، كان يستجوبنا بدلا من أن نسأله . وكنا نريد أن نعرف لماذا وكيف .. لماذا وكيف تحول السد الى معركة حقيقية . منذ جاء صدقي سليمان .. معركة يقودها هذا الرجل ويتخطى بها الحواجز المستحيلة . وقال هو : اعطاء الرجال المسئولية ! قال : انني اؤمن بالانســان واثق به ، واعطيه المســئولية ، وفى أغلب الحالات ، بل دائما تقريبا تبنى المسئولية الرجال وتصنعهم وتضاعف من طاقاتهم ..

ابراهيم زكي قناوى ، نائبه الاول ، قال لنا ، السر هو فى الحب والتعاون ، هذا هو سر تدفق حيوية العمل فى السد ، فوزيرنا قادر على تجميع كل الخبراء والوكلاء والعمال وغرسهم فى العمل .

وابراهيم زكي نفسه نموذج آخر جنوني ، رجل تعدى الستين ، فى حيوية ابن العشرين ، خبـير بمهنته كمهندس كاقصى حد ، خبير بالنيل خبرة شخصية ، لمس كل شطآنه ، واشـــترك وعمل فى كل قناطره وحواجزه ، وعمل على كل شبر من ضفافه . لا يعرف انســـان حدودا لطاقته . يحسب فى مكتبه كل قطرة ماء ، يرتب عمل كل كراكة ، عندما بدأ السد الرملى (الذى أقيم أمام قناة التحويل أثناء حفرها) ينهار فى بداية عام ١٩٦٣ كان اعتى الرجال يبكي وينهار ويقف عاجزا يشـــهد الكارثة ، وكان هو يعمل بذراعه ويصرخ ويشير ويضحك ويغضب ويضرب الارض بقدمه ، ويقول للرجال من حوله : سنبني سدا آخرا لو انهـــار هذا ، وعلينا ان نقويه لنكسب ثلاث ساعات من العمل قبل أن ينهار ..

عندما كانت تنتهي مقابلاتنا مع هذا الطراز من الرجال ، دائما كان يحتل رؤوسنا سؤال : هل هؤلاء الناس خلقهم السد أم جمعهم السد ؟.

سؤال ظل يطاردنا ونحن نلتقى بكل رجل من رجال السد .. دون أن نعثر على اجابة عليه ..!

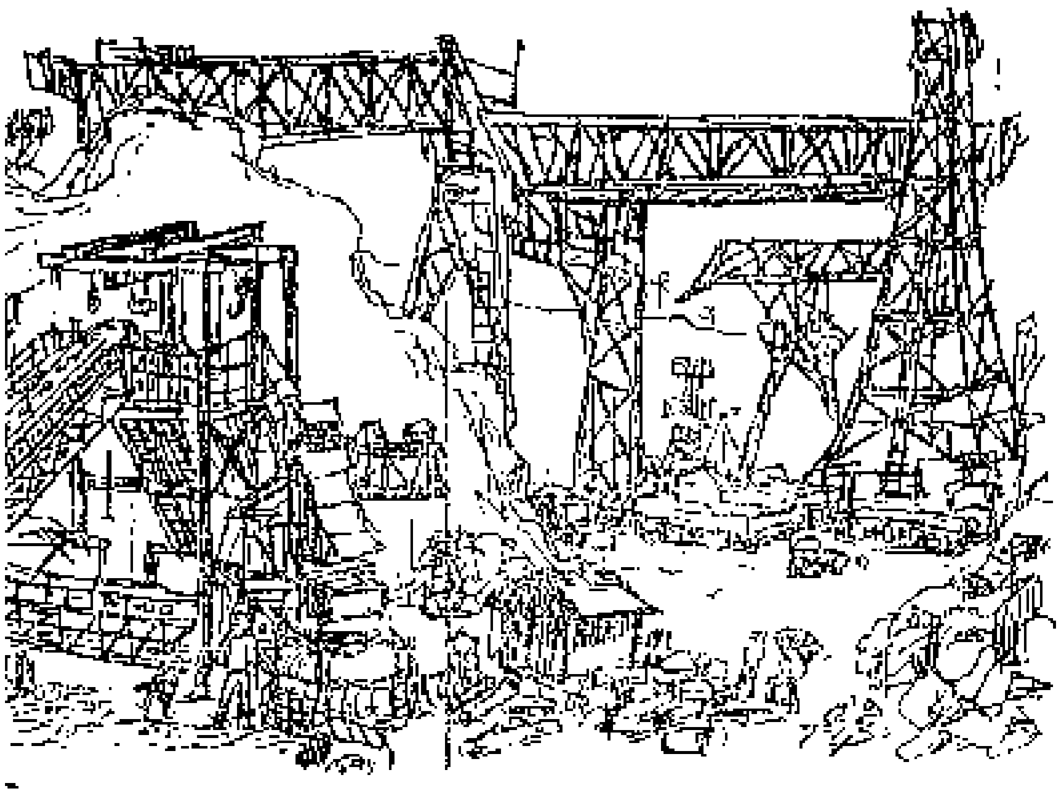

السد بلدى

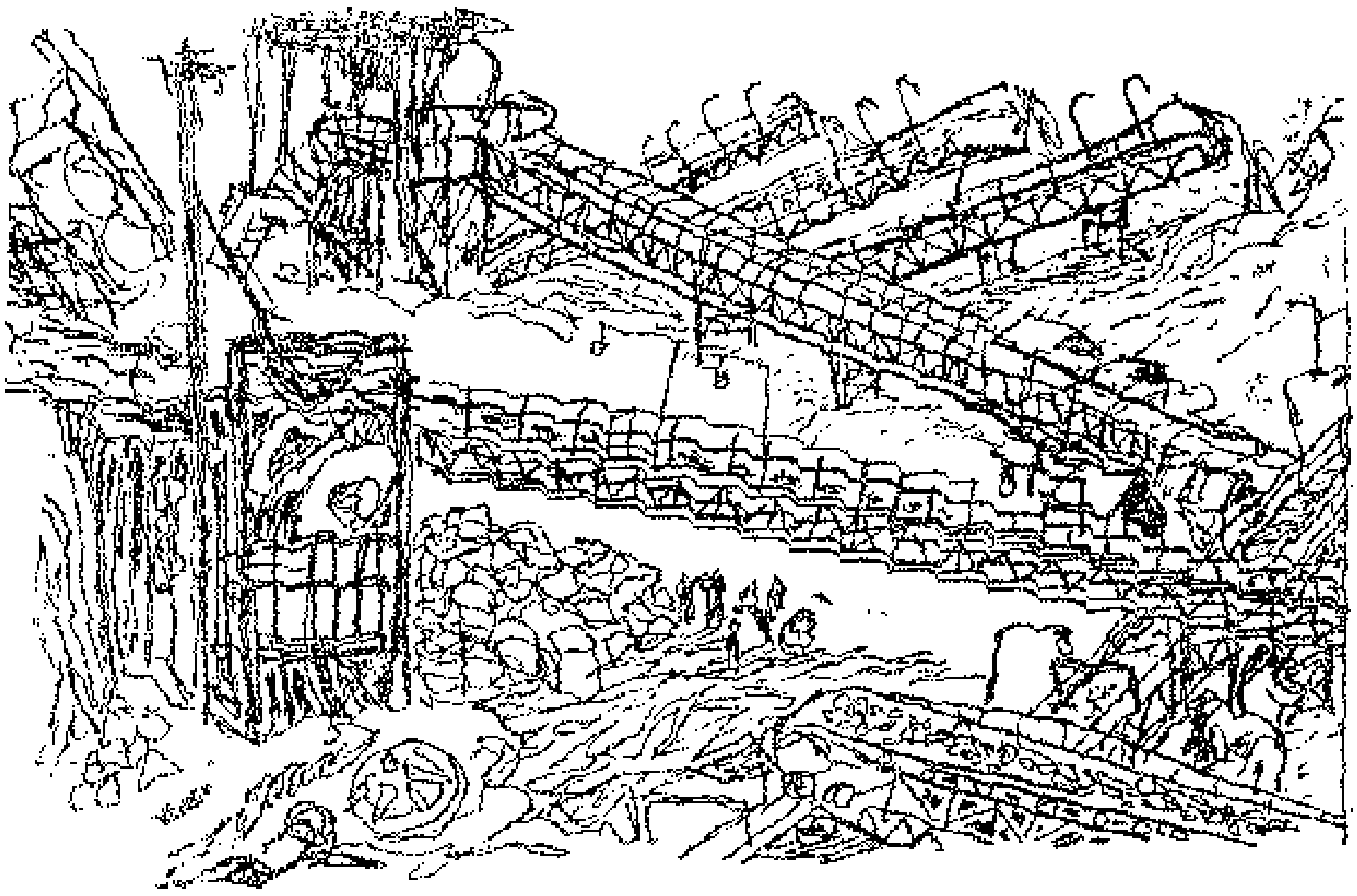

كان أسعد اللحظات اللى جرت لى يوم التحويل ، مفيش يوم زيه . منظر غريب . كان فيه لوحة بدأت على ما أظن بيوم ١٦٧ لغاية مابقى يومين .. اعجوبة .. انا ماكنتش مصدق ان العمل حيخلص .. عامل خراسانة قال لى : انا زعلت فى اليوم ده، لان الميه غرقت كل اللى عملناه .. !

كانت نهاية ورديتى الساعة ١٢ ظهرا قبل التحويل بيوم ، وتركت محطة الكهرباء ، وبعدين روحت بيتى فى أسوان ، أنا متزوج وعندى أربعة اولاد ، ثم جيت تانى يوم الصبح كالمعتاد ومعى كارت دعوة من الوزير ــ باسمى: سيد محمد النجارى ــ لحضور الاحتفال ، نزلت من الاوتوبيس عند القناة الامامية ، لقيت زحمة شديدة جدا فى السد ، مكنتش عارف اتجه فين ، قالوا لى اتجه الى القناة الامامية ، وجدت صوان الريس وفيه الضيوف وسمعت خطابه ، وقام بتفجير السد الرملى الامامى واطلق حمام ابيض كان نفسى اجيب الاولاد ولكن الزحام كان شديد ، وكنت متضايق انى مجبتش الاولاد ومبسوط لانى بشوف يوم مش حيتكرر ، وكان فيه شغل تصور فى بعض الاماكن ، العمل لم يتوقف حتى فى هذا اليوم ، وغالبية العمال خدت أجازة ثلاثة أيام .

كان فيه أربعة واقفين فى أعلى مكان بالمحطة ومش متوقعين على الاطلاق ان الميه حتيجى ناحيتهم لكن اندفاع الميه من الامام عمل موجة عالية جبارة ، واحد انقذوه ، وغرق التلاته ، لو المية كانت تقابلت فى المحطة من الامام والخلف كانت دفدغتها. المحطة غرقت كل يوم التحويل، وكان على كل حتة فى المحطة معلقين اعلام ، الاعلام اللى كانت مرفوعة على مواسير هى اللى كانت باينة ، وكان منظرها غريب جدا ، باينة على سطح الميه ، وكأنها مغروزة فيها ، وقت تفجير السد الرملى الناس بتوع الحقن جم حقنوا الخراسانة لغاية مامنعوا تسرب المياه ، قبل التحويل بيوم كنا شغالين فى نظافة المحطة .. كانت اللوحة تدينا احساس أن مفيش وقت والوزير كان قاعد معانا .

اخطر خبرة اكتسبتها هنا هى فن قيادة الناس وقيادة العمل وتنوع طرق التشغيل ، مش حتصدق لو عرفت ان سنى ٢٢ سنة بس، أنا خريج فنون جميلة، اسمى حسن توفيق ، المرحلة الاولى نجحت بسبب التعبئة السياسية الشاملة التى حولت السد العالى الى رمز قومى ومعركة وطنية ممتلئة بالتحدى والاقدام والخوف من عدم الانجاز بالجسارة والبطولة كحرب كمعركة كحياة ، وبالرعب من النكوص والرعب من فضيحة عالمية لو لم يتم ، كان العمل جاد وقاسى وممتلىء وكان ملىء بالاختبارات القاسية . سنة ١٩٦٣ كان فيه خوف من الفيضان ، كان هناك سباق مع الزمن ، لازم قناة التحويل تكون جاهزة كان معروف ان فيضان ٦٤ حيكون جامد ، وكان هذا اقسى اختبار ، لم يكن فيضانا عاديا ، وكان لابد من الصمود او يجرف الفيضان كل شيء ، كل مابذل من مجهود . كانت الصخور تلقى فى قاع النيل وكان من الممكن ان يجرفها الفيضان ويدمر كل الجهد المبذول . كان ممكن المياه تهجم على الانفاق وتدمرها ، ولكننا صمدنا امام الاختبار القاسى وحدثت تضحيات غالية وحقيقية .

اسمى حمدى توفيق محمد ، عمرى ٣٣ سنة ، من ثلاث سنين وانا باشتغل فى السد ، كلهم فى الانفاق ، اشتغلت ميكانيكى على الكسارات ، لما جابوها قطع مفكوكة وركبوها الروس . شفتها . الروس ما بيخبوش عنا أى حاجة مش زى غيرهم . معندهمش أسرار فى الصنعة كل حاجة يقولوهالك، ولازم الصنايعى يرمى نظرة على أى حاجة يفهمها . ويشتغل فيها اخدنا خبرة . عمرى ماشفت زى ماكينات التخريم . ولا المكن الروسى كله جديد علينا . البولدوزر مثلا والا الكراكات . قبل السد كنت ميكانيكى ديزل ، بشتغل على مكن ديزل ، كنت باخد فى شركة تيكو ٩٠ قرش .. وجيت اشتغلت هنا بـ ٦٠ قرش وانا من مركز دشنا مديرية قنا .

أنا كنت مساعد سباك، فى اسنا، اسمى سعد محمود محمد، بشتغل كهربائى فى النفق، اعمل من سنتين هنا . الاول كنت فلاح كل ما اعرفه تعلمته من السد . متزوج وعايش فى السيل الشعبى . شربت الشغل لانى مبسوط انى بتعلم حاجات جديدة . كل

الناس اللى انت شايفهم هنا فى النفق كانوا فلاحين واتعلموا . السد خلص خلاص . المرحلة الثانية تشطيب مش زى البداية . الشغل دلوقت دقى المرحلة الاولى ماكانش الشغل دقى . كان فحت وحفر وسواقين وعربيات .

أهم طابع للسد هو السرعة، معركتى ضد الوقت، عملية عناد، ضرورى السد يتعمل ، الوزير فى أيام المرحلة الاولى كان قاعد قصادنا فى الجاراج على فردة كاوتش على أرض الجاراج هنا ، أنا سافرت بلاد برة . محمود نجيب راح انجلترا . هناك فى مصنع البارفورد بيركبوا ٤ فرد كاوتش للعربية فى ١٥ ساعة نظامهم كده . احنا بنركبهم هنا فى الجاراج ده فى ساعة. هنا الحماس هو الاساس هناك امكانيات غير عادية بيشتغلوا بالكهرباء وأوناش وآلات ومعدات. هنا الشغل عتالة. اكتشفنا هنا ان السوست بتنكسر بسرعة ، عملناها وصنعناها محليا واضفنا سوستتين للشاسيه . وعملناها على ١٥ ورقة ، وحددنا الورقة بالضبط ايه . هنا فى الجاراج ده ولما رحت انجلترا لقيتهم نقلوا نفس الفكرة بتاعتنا واضافوها للتصميم بتاعهم . عندنا الميكانيكى متفتح جدا. احنا اسرة واحدة فى العمل بنقعد مع بعض فى الجاراج اكثر من عشر ساعات علاقاتنا ودية ، مفيش ريس وضرورى العامل هنا بيشتغل اكثر من المطلوب منه بسبب هذه العلاقات ، فى انجلترا واوروبا لايمكن العامل يقعد بعد الثمانى ساعات دقيقة واحدة هنا عندنا فى الجاراج تعال شوف بص ناس بتيجى قبل الوردية بساعة ونصف علشان توضب شغلها وتقعد بعد ساعات العمل ، احيانا العمل يحتاج نقعد شوية احيانا بنقعد بالثلاث ساعات برضا العامل ومزاجه . حاجة غير معقولة وظاهرة لايمكن تجدها غير هنا ، ملناش شغلة غير الشغل هنا . العامل البسيط هنا بيبتكر حاجات كثيرة جدا قلبه على الشغل قلبه على المشروع، حماسه نابع من احساسه بالبلد كلها ، فى انجلترا الجماعة بتوع مصنع الرولزرويس بيعترفوا بانهم استفادوا من العيوب التى ظهرت فى العربية بتاعتهم بعد شغلها فى السد العالى .

رايت فى لندن شباب الانجليز حاجة غير معقولة ويستحيل انى اوصفها لك شباب متعفن ومنحل بشكل غريب وقذر جدا . مابيستحموش وشعرهم طويل وكسالى ، وعايشين بطريقة لا يمكن تصورها . مثلا فى

ذهني صور لشبابنا احنا . الناس اللي بتشتغل في السد العالي ١٨ ساعة بقوة وعزم ، مفيش نسبة على الاطلاق ، قال لي احد كبار المهندسين الانجليز راجل سنه خمسين سنة ان الشباب عندهم مش بتاع شغل خالص ، الناس الكبار بيتحسروا على الجيل بتاعهم قالوا لي بعد عشرين سنة أو ٢٥ فيه شعبين حيتصدروا حضارة العالم ، هما الشعب المصري والشعب الروسي . ودي كانت مفاجأة لي ، وقالوا لي دول حيعيدوا للعالم حضارته من جديد ، اللي خلاهم يقولوا كده ، لما شافوا شبابنا والعمل هنا في السد .

انا خدت دروس من عملي هنا ، لازم اتبع بروجرام ، في الصيانة ، في أول مشروع حابدأ فيه بعد السد حنفذ هذه الخبرة ، حوضع بروجرام الصيانة ، الانجليز قالوا لي احنا افتكرنا ان احنا كسبنا الحرب وده مش صحيح ، اللي كسب الحرب المانيا ، كل شيء في انجلترا دلوقت الماني .. وامريكاني . العربيات بتاعتهم دلوقت موتوراتها جنرال موتورز (امريكاني) والمكن في المصانع الماني .

المهندس عندنا كشكول وده غلط ، في مصر كل مشاريعنا عبارة عن خدمة تنفيذ ومفيش انشاء ومابنشتغلش في التصميم أبدا .. عاوزين نصمم بأه لبلدنا . انا تخرجت في جامعة عين شمس قسم ميكانيكا سنة ٦٢ ، وجيت على السد على طول ، انا من قليوب خطبت واحدة قريبتي باحبها ، كنت بكلمها من هنا في مصر كل اسبوع ، ولكن في فترة أواخر المرحلة الاولى الشغل كلني خالص وبدأت هي تفقد ثقتها بي ، هل تتصور اي واحد بيشتغل في السد ممكن يعمل اى حاجة تانية . انا هنا لما يخلص شغلي بروح اقعد على الرملة ، على جسم السد ،واتفرج على العربيات رايحة جاية ، تنقل حجارة وطمي ، بحس طول ما العربيات بتشتغل بالفرحة بان انا اللي بابني السد حتلاقي الشعور ده عند كل سواق وعتال ومهندس وملاحظ . ومع ذلك انا بشعر اني انا اللي بنيت السد . ورغم هذا تبددت ثقة خطيبتي كل الناس هنا بتثق في ولكني فشلت في أن أكسب ثقتها ... وانفسخت الخطوبة .

اسمى نصرالله جاد عبدالمسيح، ٢٠ سنة اشتغلت فى السد وأنا عمرى ١٨ سنة ملاحظ خراسانة ، مابدخنش عشان السلم صعب قوى ، أقوم بتحديد منسوب صب الخراسانة وألاحظ نزولها أشرف فى اليوم على صب ٨٠ مترمكعب خراسانة بصب يوميا عشان التوربينات حوالى ٢٥٠ متر مكعب خرسانة فيه حاجات مشفتهاش غير هنا فى السد، أول مرة أشوف الهزازات اللى بالكهرباء (آلة لتقليب الخرسانة) اول مرة أعرف الفواصل بين الخراسانة وغيرها· مشفتش ابدا تسليح زى اللى هنا أبواب الانفاق أكبر أبواب فى الدنيا ، الونش اللى بيرفعها صمموه مخصوص عشانها . انا باصحى فى الساعة ٥ الا ربع لالحق العربية وأوصل هنا فى السادسة صباحا ، أوصل بيتنا فى العادة الساعة ٣ بعد الظهر واحيانا اعمل ورديتين مع بعض ، انا من اسنا ـ الفطايمة مركز اسنا ـ وساكن فى اسوان ـ اتعلمت من الروس رسم البلوك وقطاعاته الافقية والراسية وتعلمت ترقيم البلوكات . كل حاجة عند الروس بالرسم .

كنت حابقى رأسمالى تصور ، اسمى انيس حنا معوض ، كان عندى اجتماع مع نائب الوزير ، انا مهندس مدنى للانفاق أشرف على الحفر والخرسانة وتشغيل الآلات والتخريم والتبخير قضيت فى الانفاق ٣ سنين ، عمرى ٣٢ سنة ، اشعر بالسعادة لما بشوف نتيجة شغلى ، وبافخر لانى اشتركت فى العمل ، شغل مكناش بنشوفه فى البلد قبل كده وكنا بنشوف حاجات زى كده فى الكتب وفى الافلام ، وكنت باذهل واستعجب ودلوقت انا عايش فى قلبها ، كنت شغال فى شركة لمدة ٥ سنين أول ما بدات آكون نفسى وفتحت مكتب جالى أمر تكليف على السد . وده غير مجرى حياتى على الآخر ، بدات بالمهن الحرة وتذوقت طعم المكسب . انا استنشق هنا تراب طول الوقت ١٢ ساعة فى اليوم بشتغل وآكل وانام ، بكتسب خبرة لقيت نفسى مندفع للعمل بعد ماوصلت هنا بصورة لاأصدقها بالنسبة لنفسى ، الخبرة ، روح العمل نفسه ، تديك برغم كل الصعوبات روح جديدة وطاقة لامثيل لها · ضخامة المشروع وشعورى بأنه من أكبر مشروعات العالم ينسى كل التعب وكل المكسب القديم . طموحى اشتغل بايدى على طول بعد السد حاطلع على منخفض القطارة ، او الوادى الجديد ، حاعيش طول حياتى بعيدا

عن العمران ، ومعنديش امل اسكن فى مدينة ، المهندس كده .. يروح الاماكن ويعمرها . ولما تعمر مايسكنش فيها ، ينقل نفسه على طول لمكان آخر . وهكذا .. احنا بلادنا عاوزة كده والعصر اللى عايشين فيه عاوز كده . انا اتعودت خلاص ، اتعلمنا هنا العمل بعيدا عن الروتين وتعقيدات البيروقراطية ، لما انزل القاهرة بتضايق من زحمتها ، واحيانا ببوس القطر ، اقرأ احيانا فلسفة وعلم نفس ، عاوز اعرف البنى آدم ، ليس لدى وقت فراغ ، فانا فى الانفاق صباحا ومساء .

أنا تطوعت للعمل هنا . طلبت من مدير الترسانة فى بورسعيد ان اتركه من اجل العمل فى السد . كنت باشتغل فى مشروع ناصر لتوسيع قنال السويس . اسمى حمدى متولى ٢٥ سنة ، من بنها .. السد مدرسة فى العمل ونظام التشغيل والمعدات والروح اللى فيه ، السد خلق حاجة تانية خالص ، خبرة وناس جداد ، أى مشروع بعد كدة حيبقى سهل ومعقول ، اتمنى اعمل فى سدود البلاد العربية اخويا بيشتغل هنا فى خطوط الكهرباء عملى وحياتى وخبرتى ومهنتى اصبحت مرتبطة بالمشروعات العصرية الضخمة الناصرية ، مشروع ناصر لقنال السويس ، وسد ناصر العالى ..

كنت سواق بلدوزر فى مديرية التحرير ، اسمى بدوى شاذلى ، عمرى ٢٦ سنة جيت أسوان عشان هى بلدى ، اكتسبت هنا قوة الاحتمال والصبر . العمل صعب . انا سائق هزاز لدك الرمل فوق جسم السد ، ورديتى ١٢٠ متر سمكها ٦٠ سم امر عليها بالهزاز ٢٠٠ مرة فى اربع ساعات لكى يصبح سمكها ٤٠ سنم او ٣٥ سنم . احنا تسع هزازات بنشتغل فى قلب جسم السد ، الهزاز عبارة عن جرار ومن خلفه برميلين كبار مربوطين بعمود كردان بالجرار ، والعامود مربوط على سوست ومواسير تمر منه طول الوقت هزة ، الهزة والسير فوق الرمال تعمل ضغط يخلى الرملة تمسك فى بعضها . هوايتى الموسيقى ، انا عامل وسائق ولكنى احب الموسيقى بدأت معى الموسيقى بطريقة مضحكة . ستضحك عندما

اقول لك انى هويت البروجى ، هذا النفير المزعج عندما كنت فى الجيش ، وصممت انا اللى جاى من اقصى بلاد مصر اسوان المتاخرة جدا فى ذلك الوقت انى اتعلم هذا البروجى العجيب اللى جذبنى ولكنى اكتشفت بعد كدة ان البروجى ليس هو الموسيقى وانما كان بداية لطريق صممت ان اخوض فيه . ولم تنفجر طاقتى وحبى ومزاجى الا هنا على جسم السـد ، تعرفت بالروس واحـد منهم لاحظ هوايتى ، فدعانى الى النادى بتاعهم وبدات اتعلم ، ادك السد بالنهار بالهزاز والجرار وفى المساء انفخ والعب فى الخروم النحاسية بصوابعى وانا الآن اضرب على العود والطرمبة والآلات النحاسية واشتركت فى اكثر من مائة حفلة موسيقية وانا عضو فى الفرقة الروسية المصرية الموسيقية فى كيما ، عملنا حفلات ما تنعدش ، وعزفت مئات المرات ، ويوم التحويل احسست بكرامتى وباننى مصرى حقيقى وباننى بنى آدم ، واحلى يوم فى حياتى لسه ما جاش ولكننى على موعد معه واعرفه جيدا ، يوم ننتهى من السد تماما ونقف فوق قمته وننظر الى المياه التى حجزناها وسددنا عليها مجرى النهر ..

هوايتى التمثيل .. عمرى ١٩ سنة ، اسمى ماجد مصطفى ، اصلا من العجوزة ، بقالى هنا ٣ سنين ، كنت طالبـــا فى الاعدادية فى القاهرة تركتها والتحقت بمراكز التدريب فى مصر وتعلمت سواقة البلدوزر ، وتعلمت اللحام والخراطة وأنا سعيد انى باشترك فى بناء جسم السد ولو حتى اشتغل عتال هنا لازم ابنى السد كلنا هنا يد واحدة سواقين الهزاز ، احنا اللى بنكتم نفس الرملة !

أنا هنا مهندس مقيم ولست صفوت شاهين وكيل الوزارة ، لا تعجب لأنى أجلس هكذا على الرمل ولا تهمك ملابسى هذه ، فنحن هنا نعمل ، انا لا اتصور الفشل ، لا اخشى عقابا من المسئولين الكبار وانما فقط اخشى أمى فى البلد التى تعرف ان ابنها يبنى السد فكيف أعود اليها فى قريتنا وأقول لها لقد فشلنا يا أمى ولم نستطع تحويل النيل ، هنا فى الحقيقة ، اللى بنى السد ، البناة الحقيقيون هم

الصعايدة ، بعقولنا وبخبراتنا وبالادوات كلها كان من المستحيل ان نبنى السد بدون اذرع الصعايدة وعزمهم وتضحياتهم هنا نحن لا نخاف الاخطاء . لا وقت للمداراة عليها لو دارينا ، لو غطيناها سنواجه بكارثة لذلك فبمجرد ان نخطىء نعترف فى الحال بخطئنا كى نصححه ونتعرف منه على الطريق الصحيح ونتجنب أن نخطىء مرة ثانية ، العمل هنا له روح يحسها ويعيها ابسط واصغر صعيدى هنا يعرف جيدا انه يبنى السد لمصر كلها . عندما ننتهى من السد سنذهب على كل شبر من النيل وكل جسر وسنبنى من جديد عشرات القناطر ، سنفرغ من السد العالى بسرعة ، ليس لدينا وقت، ولدينا عشرات الاشياء الاخرى ، أنا احب السد لانه شىء لا يخص احدا بالذات ، ومعركة لا يمكن ان تنسب لمجموعة بالذات ، احبه لانه يخص مصر كلها والمصريين كلهم .

اسمى معزوز عطية من مركز نجع حمادى ٣٧ سنة كهربائى ، اشتغلت مدة فى الخزان قبل السد.اعمل الآن على مكنة ١١ « موتور جنريتور » ، معناها موتور على مولد ، وعلى ترنسات اللحام ، واشرف على اضاءة محطة الكهرباء بالليل . وعلى الهزازات اللى بتهز الخراسانة بالكهرباء والاوناش الكهربائية ، شفت حاجات مشفتهاش قبل كده . كافة المعدات مثل ترنسات اللحام الروس .. ومكنات اللحام ، اتعلمت من الروس عملية المفاتيح الاوتوماتيكية اللى بتدور طلمبات خلط الخراسانة ، اعمل هنا من ١٩٦٢ فى محطة الكهرباء . وأحيانا أثناء التفجير كان يبقى على بعد عشرين متر مننا ونضطر أن احنا منتركش عملنا ، مرة ترنس كبير ٦ كيلو قوته ٤٠٠ فولت ، الونش جه على كابل الكهربا ، الونش حمولته كبيرة وكانوا مارين على كمر حديد ، وبجواره ميه ، الونش قشر الكابل اتكهرب الونش وصعق العمال اللى كانوا ساحبينه وماشيين فى الميه وكان هذا من اسوأ اللحظات اللى مرت بى . اما اسعد اللحظات فكانت يوم التحويل .

كمال كامل مصطفى ، من المنيا ، ٢٠ سـنة ، حياتى اتغيرت من المدرسة الى السد العالى · كان ده صعب جدا على ، معاملة الناس في العمل كانت أول مواجهة لى فى السد العالى تعلمت كيف اعمل واتعامل ، الاحساس بالمسئولية ، النضج المفاجىء ، البعد عن الاهل ، الاستقلال تماما الذى لم اتعوده كشاب ، أن اعيش منفردا واعمل وسط ناس بعد ان تغير وسط الطلبة كان هذا قاسـيا .. ومفيدا لى .. أحنا عاملين « دورى طاولة » وبنشيل حديد بمجرد ما أخرج من العمـل أتشطف ، الميه بتزيل التعب ، بعـد الطاولة أحيانا نتفرج على الافلام فى التليفزيون . وسائل الترفيه ناقصة جدا ، فى اسوان سينمتين فقط ، مفيش مسرح ، احساس العازب بالوحدة رهيب ــ مشكلة خصـوصا فى اسـوان ، حاجوز لما يخلص السـد ، وبعـدين حتواجهنى مشكلة المسـكن طبعا .. يعنى لما الواحد ييجى يجوز ــ الفسـيل مشكلة صعبه . اصعب من صب الخراسانة . الايام الصعبة لما افاجا اثناء العمل بالتفجير . والصفارة تضرب . ويكون عندى شغل، فمقدرش اخرج من العمل ، لو فارقته العمال حتخرج ورايا ، فاضطر اقعد ، واتعرض طبعا لمخاطر احجار التفجير الطايرة . الجو سخن . اقاومه بخلع ملابسى كلها ماعدا جزء من ملابسى الداخلية ، فى حجرتى طبعا . احس بان احسن يوم عندى لما بشوف اهلى ، لما بييجى لى جواب ، وده تقريبا كل ستة شهور مرة . وخصوصا ان اهلى بيشعروا أن ابنهم بيشـتغل فى السـد ، وان دى حاجة كبيرة عندهم قوى ، تصورروا ! .

بحر صيام ، كهربائى ، ٣٣ سنة شكلى أكبر من سنى من الديناميت ، قبـل كنت أعمـل فى شركة السـكر مساعد كهربائى من المرحلة الاولى وأنا هنا ، جيت عشان بلدى ، اتعلمت هنا فى الهزازات وتوصيل ترنسـات اللحام والانارة . اللمبة الكبيرة هنا ب ٢٥٠ قرش ودى مسئولية أخذت خبرة كبيرة هنا ، انا من اسوان نفسها ، السد ده بلدى ، تركت العمل فى السكر عشانه· أنا عاوز المهندس بتاع شركة السكر يقرا الكلام ده علشان يعرف انهم ما كانوش بيقدرونى ، وهنا فى السد أحسن ، انا باتعب اكثر من شركة السـكر، وباخد فكرة احسن ، لكن هنا فيه تقدير ، ازاى اقعد عندهم تسـع

سنين وميفدرونيش ، في المرحلة الاولى كنت باشتغل وسط الديناميت، وانا مبسوط عشان الناس هنا بتقدرني ، في ارمنت مبيقدروش العمل ابدا زى هنا .

كل شيء اتغير في حياتي حتى اسمي . قالوا لي اسمك تقيل، اسمي تاوضروس كندس ، سموني في السد « حمـــــام » تعالى يا حمام ، روح يا حمام ، واصبح اسم الشهرة حمام . سني ٢٥ سنة ، أعمل هنا من سنتين ، كل شيء في حياتي اتغير . كنت أعمل مع أبي في بلد جنب نجع حمادى هناك ، كنت أعمل مع تاجر مواشي آخد البهايم اوديها السوق وارجع بيها . هنا انا بشتغل مســـاعد كهربائي ، تعلمت هنا ، السد غير أي بلد تانية ، تعلمت هنا حاجات كتير قوى ، في الكهرباء وفي الخرسانة ، شفت الفورمة لاول مرة في حياتي والبلوك الجاهز .

أنا باشتغل في ابحاث السد من ٥٣، كنت مسئول عن مشروع الفرات في سوريا أيام الوحدة ، انما انقلاب البعث وقفه . سنة ٥٩ لما كان السد لسه حلم على الورق ، وترجمتـــه الوحيدة الى الواقع بضع آلات ومعدات تعد على أصابع اليد ، قابلني كاتب امريكي فقلت له ان غلطتنا ان احنا طلبنا منكم معونة فنية فقال لي : وماذا تفعلون وليس لديكم اســتعدادات فنية ، ولا معدات كافية ، واشرت الى بعض المعـدات القليلة وقلت : اســتطيع ان ابدأ بهــذه الآلات فتحداني الامريكي وقال لماذا لا تبدأ الآن ، قلت له : أنا في انتظار مكالمة تليفونية من ناصر لأبدأ على الفور .

والمكالمة ماتأخرتش ، وعلى فكرة المهنــدس أيوب هـو صـاحب الفكرة ، الخواجا اليوناني لم يكن يفكر في عمل خزان وانما سد لتحويل المياه الى الوادي الجديد . اما سيد ايوب فجه في ســنة ٤٥ وقال لا ضرورة لتعلية خزان اســوان مرة رابعة وانما نعمل ســد جديد

قدامه . طلبه لم يقبــل وقتهــا لانه كانت هناك مشاكل فنيــة لم تحل عالميا زائد الظروف السياسية وقتها . السدود الترابية لم تكن معروفة وقتها . الحقن من عشر سنوات كان يعتبر اعجوبة وهو دلوقت موضوع مثار عالميا اللى هو الستارة وقتها كمان مكنش يمكن اى مشروع جاد للبلد يتنفذ ، أهم حاجة تميز العمل فى السد هى التفاهم المتبــادل والحب بين الناس . مرة واحد عامل كان عنده مشكلة دخل على وقال لى يا ابراهيم يا زكى انت نائب الوزير ، وانا جيت لك يا شيخ اكرامية عشان انت راجل كويس وبيقولوا عليك راجل طيب . انا شعرى أبيض صحيح وبيقولوا على عجزت . لكن انا باقوم من النجمة انا عضــو كمان فى لجنة العشرين بتاعت الاتحاد الاشتراكى وباســتمرار باديهم محاضرات . انا عملت كتاب عن زيارة بعثة الفنيين المصريين لليــابان والهند والصين فى أواخر سنة ٦٤ عشان دراسة سدود البلاد دى . المسئولين وافقوا على مشروعى لحل مشكلة النحر فى الســد باقامة عدة قناطر على مجرى النيل ممكن تنتج من الكهربا قد اللى حتنتجه محطة السد العالى .

بلدنا زمان كان اسمها البلاص لكن دلوقت اسمها المحروسة ، انا من مديرية قنا ، سنى عشرين سنة ، واسمى قاعود محمد عبد المنعم ، اعمل هنا من سنتين ، كنت باشــتغل مزارع فلاح بالفاس ، عامل زراعى ، ناس جت من بلدنا ع السد فجيت ، أول ماجيت اشتغلت عتال . نشيل ونودى . واللى يطلب مننا حاجة نوديها له . دلوقت انا مســاعد كهربائى تعلمت المفاتيح الاوتوماتيكية وترنســات اللحام ، كنت دايما اقف جنب الصنايعى ، وابص عليه ، واسأله ، فى الاول خفت من الكهربا ، واتكهربت كتير ، والكهربا صعبة ، والاســطى ضربنى ، مرة لقيت اللمبة مطفيــة ، ودخلت عليهــا .. ومعرفش التيار مقطوع منين ، واتكهربت طبعا ، دلوقت بجيب خشب تحتى واقف عليه . الكهربا جبارة ، اتعلمت ازاى اشد دراعى بكل قوتى لورا لما اكهرب ، واعزل نفسى فى الحال . الغشيم أول مايكهرب ضرورى يتهور ويمكن يموت عشــــان بيتلخم وميعرفش يتصرف أنا اشتغلت يوم التحويل نفسه ، ما بطلتش شغل .

أنا بلدياته، من البلاص كمان، اسمى مدبولى عبد المنعم ١٩ سنة ، كنت مزارع اجرى ، فى البلد كنت باخد عشرة صاغ الأجر ومابيكفنيش ، هنا باخد ٢٤ قرش وباشتغل عتال . وبحاول عشان اشتغل كهربائى ، باشيل الكابلات ، وراء الكهربائى بشوف بيشتغل ايه ، هنا الناس بتساعد بعض وبتعلم بعض . وحبقى كهربائى .

ربما أكون أصغر شاب فى الجمهورية يحمل وساما من الرئيس عبد الناصر ، عمرى عشرين عاما ، اخذت الوسام فى العام الماضى ، اسمى صفوت كمال ابراهيم من المنيا ، اقدر اصلح الكراكة الهايلة اللى انت شايفها دى ببساطة ، لكن المسألة الصعبة اللى بتواجهنى فى حياتى هى انى معرفش اغسل ! فشلت . فشلت انى اتعلم غسل الملابس ، لكن باعرف اطبخ ، فى الاسبوع الماضى كنت باشتغل من عشرة مساء حتى السادسة صباحا ، اللى جابنى السد انى قريت حاجات عنه وانا فى مدرسة الصنايع ، السد بتاع البلد كلها، وفيه خبرة هايلة ، وايضا فيه سكن مجانى ، انا سعيت للعمل هنا فى السد ، عارضنى ابى لانى حاكون بعيد ، وكانت دى أول مرة اتغرب فيها . دلوقت ليه أصحاب كتير هنا ، فى الشهور الاربعة الاولى قاسيت من الوحدة ، وبعدين اتعودت ، معرفش اعوم لكن باروح حمام السباحة ، كنت حاغرق مرة ، وأنا صغير عشان كده بخاف من الميه جدا ، الخوف يحطم فى الانسان أى رغبة فى التعلم . فى عملى انا شجاع ، جميع الناس بيشهدوا لى بالشجاعة والجراة ، انا شخصيا معرفش اذا كنت شجاع والا جبان صدقنى . شفت هنا اخطار لا حصر لها ، أول يوم نزلت فيه النفق وقع خلفى مباشرة حجر ثلاثة متر مكعب ، كان بينى وبينه اقل من متر ، اصيب عدد من الناس اصابات جامدة ، اليوم الجميل عندى لما مايكونش فى المكن عطل ، انا بتعب نفسيا وجسديا لما أشوف آلة من الآلات واقفة . دلوقت الشغل ماشى ، واقدر اقف معاكم شوية . الحياة العملية هنا خلاف حياتى الاخرى وانا فى المنيا ، اتعلمت هنا اشياء لا حصر لها مكن التخريم ، والكراكات التى لم تعرفها بلادنا من قبل . البلدوزر ، تشغيل المدفع ، الكسارات ، كل هذا اقدر اصلحه واعرف عيوبه ، ومحاسنه وحفظته تماما ،

تعلمت من الروس كتير جدا • أنا ادين لهم ولاخلاصهم في العمل ، الناس دى ما بتخبيش عننا أى حاجة من معلوماتهم ناس مخلصة فى عملهم وقلبهم على الشغل وعلينا بصحيح .

كان املى اكون ضابط مهندس ، الامل ده ضاع ، وانا فى الاعدادية دخلت المطبخ وقلت لوالدى الذى كان يعطينى درس أنا رايح اشرب ، فتحت حلة كانت على الوابور واعطيت الوابور نفس علشان البطاطا تستوى ، فانقلبت حلة المية اللى بتغلى عليه وحرقت بطنى قعدت فى السرير شهرين ، ودى غيرت مستقبلى ، وذاكرت ونجحت . لكن جه مجموعى فى الاعدادية ضعيف مقدرتش اكمل ثانوى ، دخلت مدرسة الصنايع بالصدفة ،وانا مش عاجبنى المؤهل المتوسط ، حاعمل معادلة بعد ما يخلص السد ، وادخل كليه الهندسة بأى شكل .

عمرى ٢٢ سنة واسمى انور حمزه من أسوان، تخرجت من المدارس الصناعية الثانوية وسافرت الى الاتحاد السوفييتى للتدريب ، قضيت عشر شهور فى فولجراد لأتدرب على تشغيل محطة الكهرباء فبعد انتهاء السد لن يبقى فى المنطقة كلها غير العاملين فى محطة الكهرباء ، وهذه المحطة ستحتاج الى ٥٠٠ فنى ومهندس • العامل منا كان يرفض انه يرفع الكابل من الارض على أن ده من عمل العتالين ، انما كلنا تغيرنا دلوقت • الروسى مهما كان وضعه لا يترفع عن شىء مطلقا تعلمنا منهم ايضا احترام المواعيد والنظام • المرأة هناك لها شخصيتها • حاجة تانيه ، احنا لازم نبقى زى الجماعة الروس دول ،ليه مانوصلش لمستواهم انا شفت عامل روسى النفق انهار عليه ومارضاش يجرى ويسيب الكراكة وراه •• قعد يناضل بجنون واحنا نزعق فيه انه يخرج ويسيب الكراكة لكن مارضاش ، وقعد يناور بيها لكن الاحجار كانت بتتكوم عليه وتعجزه عن الحركة • فدق ملعقة الكراكة فى الارض وقعد ينط بيها لورا لغاية ما خرج من النفق • الروس خبراء فى كل حاجة حتى فى برشمة المسامير لازم نوصل لمستواهم • ده بامكاننا • وحننجز بناء السد ! ••

احنا الى عاملين الطرق دى ، الغرب والشرق ، جوزى اشتغل فيها ، اسمى ثريا سرحان ، • جوزى المهندس على سليم ، آنا آكتر واحدة شافت الويل هنا • بقالى ٩ سنين فى أسوان • وجوزى بيشتغل فى السد من أيام ما كان لجنة ابحاث ، كان السد خط بالجير الابيض على الارض كان جوزى بينزل يشتغل فى الطريق الاسفلت وأنا قاعدة لوحدى فى الشقة تحت الخزان ويرجع الساعة ١٢ بالليل • كان بيدوب جوزين جزم فى الشهر ، وكانت الديابة صوتها طول الليل يملأنى بالرعب ، كل بناتى دول اولدوا فى أسوان . كلهم أولاد أسوان. بيحبوا اسوان ، ويعتبروا القاهره شـــتمة ، وكان اهلى بيبعتولى الهدوم فى طرد بالبوستة ، مكنتش تلاقى أو تقدر تشترى جلابيه من اسوان ، مفيش محلات ، ولا محل صرمانى ولا رفا ولا حتى عصير قصب .

مكنتش تلاقى مواصلات ، بين بيتنا وبين اسوان كان اتنين كيلو ، كنا فى ليالى نبات من غير عشا ، ما نلاقيش عيش فى أسوان . واحيانا ما نلاقيش مواصلات علشان نروح نشترى عيش ، الكلام ده من سبع تمان سنين ، كنت فى الاول خايبة جدا . معرفش اشم ابرة ولا اطبخ ، اتعلمت هنـا من النوبيين ودلوقت بعمل حـلويات وتورتة ، وبعدين خيطت هدوم العيال ، ودلوقت بافصل فساتين .

الزنقة علمت الواحدة كل حاجة ، أنا شفت السـد حتة حتة . كنت بنزل اللنش وبروح السد واتابع الشغل ، ورحت الانفاق وهى بتتعمل وكانت الحجارة بتقع جنب رجلى ، رجل جوزى انكسرت مرة فى الانفاق .

قابلت وكيل وزارة السد وقلتله أنا بنيت السـد معاكم ومع جوزى على ، ستات مصر مدلعين قوى . وانا كنت زيهم ، اختى فى مصر مالعرفش تعمل منديل . جوزى مهندس فى السد ومعنى كده انا اللى بتصرف فى كل حاجة خاصة باولادى ، أنا اللى بقابل الناظر والمدرسين أنا اللى بروح الدكتور لما العيال تعيا ، كنت لما بنزل مصر باحس انى طالعة من مغارة اسمها اسوان .

أســـوان كانت جبل وكانت ســجن حقيقى ، دلوقت لا يمكن اسيب أسوان ، دلوقت المدرسة جنب البيت ، وساكنة فى عمارة مجانا فيها جهاز تكييف هواء والبياعين ماليين الشـــوارع ، والجمعية

التعاونية جنبنا وفيها كل حاجة . واسوان بقى فيها بنزايون ، وصيدناوى وعمر افندى وكل حاجة . النوادى ، والجناين والسينما والتليفزيون ..

أنا باحب المسرحيات والموسيقى ، وبعد ما شفت الويل فى أسوان فى الاول لا يمكن اسيبها دلوقت ، عندى وعند أولادى اسوان احسن بلد فى الدنيا احسن من مصر مائة مرة . المشروع كل يوم بيكبر وحياتنا بتكبر معاه . متعرفش بكرة حيكون فيه ايه احسن ؟ تعال بعد سنة واحدة وانت تشوف العجب .. !

خدمت فى اليمن قبل السد العالى ، دكتور هناك كمان ، اسمى عاطف عسل . سنى ٢٩ سنة ، طبيب ونقيب ، عالجنا اليمنيين وكنا نطلع فى عربية لعلاجهم فى القرى ، المستشفى بتاعنا هنا فى السد فيه جميع الامكانيات ، الادوية الغير موجودة فى مصر موجودة عندنا ..

العيادة الخارجية لا تصرف الا الادوية الجاهزة مش زى بقية المستشفيات ، معندناش ادوية تركيب ولا امزجة . هنا يعالج المريض. وكأنه فى عيادة خصوصى . مفيش أمراض معدية هنا رغم الاعداد الضخمة ، بنوزع اقراص منع الحمل ببلاش .

فرق شاسع بين وكيل الوزراء اللى هنا فى السد واللى فى مصر ، هنا بيحلوا المشاكل وانت قاعد ، تشعر بالمسئولين هنا زى الأب والأخ أكثر منه راجل بينفذ القانون ، ودى بتنعكس على الكل مبتبقاش دى روح المسئولين بس ، كل الناس بتبقى كده ، بدليل هنا لما اضطر واعطى عامل مريض اجازة بيرفض يأخذ اجازة وبيروح الشغل ، فى القاهرة غير كده . فيها تمارض . حاجة غريبة هنا قوى ، عشان الحكاية دى تتمم ، الرك على اختيار الرجال والاشخاص ، المهم القدرة. الوحش يبقى كويس .. أى حاجة عاوز اشتريها للمستشفى من ادوية . أدوات أو اى حاجة فى الحال تيجى لى ، مفيش لجان ومفيش تعقيدات ..

أنا آمنت لولا الروح دى ما كانش ممكن الانجازات ودى تتعمل بالسرعة غير المعقولة .. احيانا احنا بننتقل لمساكن العمال وبنروح فى عربية الاسعاف فى الموقع لو حصل حاجة ، ويخطرونا .. وفى العادة المهندس بييجى مع العامل بتاعه عشـــان يطمن عليه ، ودى بتدى احساس ممتاز عند العمال ، أغلب المهندسين هنا شباب والشباب له روح تانية فيها حماس . ودى بتدفع العمال للعمل باستمرار . لابد كل الناس يكون عندهم رسالة توعية ، وكل فرد فينا جنب عمله ، دكتور موظف مهندس ضرورى يشتغل فى التوعية . مش ممكن الانسان يتغير من يوم وليلة . ولكن ممكن يتغير .

الإله القديم

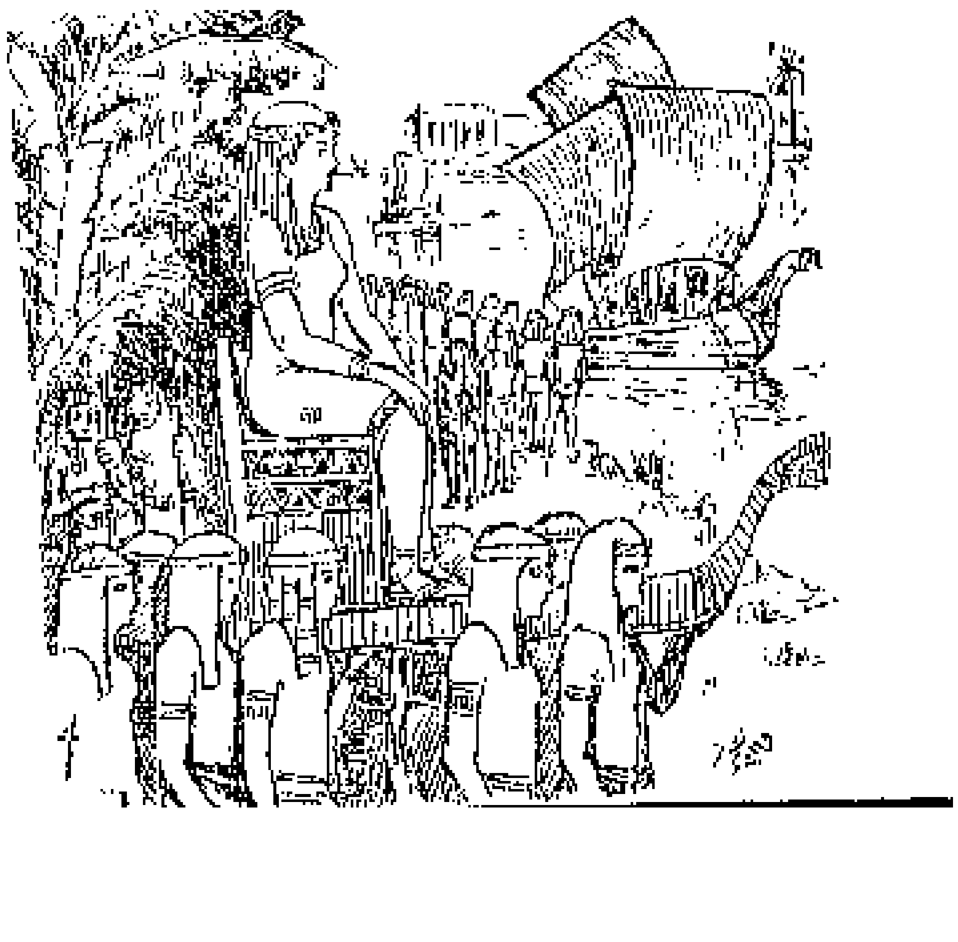

— ١ —

من فوق الربوة العالية كنا نشهد نهرين..

احدهما صاخب متمرد أبدا .. والثانى منخفض هادىء مطيع..

ومن العيون الحجرية الاثنتى عشر ، كانت المياه الزرقاء والبنية تلطم الاحجار ، والبوابات الحديدية والجدران الصخرية فى غضب حقيقى ، من اثر معركة حقيقية .. هى اغرب معركة دارت بين الانسان والمياه ..

فطيلة آلاف السنين كان النيل يجرى فى طريقه المعهود ، وفجأة جاء عدد من الناس والآلات .. وحفروا له طريقا جديدا مجاورا يمتد بضع كيلومترات ، وفى مايو ١٩٦٤ اجبروه على أن يتحنى فى هذا الطريق ..

وقاوم النهر بشدة .. واستبسل حراسه من الصخور .. ولكنه قاوم مقاومة الملوك الذين يفاجئون بانقلاب ، فيقاومون مقاومة ضعيفة مندهشة .. أما الحراس ، فانهم دخلوا المعركة بكل ثقلهم ، واختلطت اجسادهم الصخرية بدماء القتلى الحارة وهشمت الصخور عشرات من الآلات وسحقتها بحنق وسرعة ، ولكنها استسلمت فى النهاية وانزوت على جانبى الطريق مهشمة مليئة بالجراح ، منزوعة السلاح .. وتقدم الانسان فوق آلاته بعد أن أجبر النهر على أن يخضع له .

ولكن النهر بذل محاولة اخيرة ..

فعندما انتهى كل شىء بالحساب والآلة ، بالقلم والورقة ، بالصورة والكلمة ، وفتح الطريق امام النهر ، انطلق هادرا غاضبا محطما أمامه بضع آلات ، سحقها وقذفها بعيدا الى حراسه ، ثم انثنى ليقبض باصابعه على بعض الرجال الذين ظنوا واهمين أن النهر قد روض وانتهى أمره .. فحصرهم بين احضانه ، وانطلق بهم — مثلما فعل شمشون — نحو مصيره ..

ولأول مرة فى حياته الطويلة ، يستيقظ النهر ذات صباح ليجد

الطريق الى البحر مغلقا بجبال من الاحجار والرمال والصخور . عدوته اللدودة الصخور الجرانيتية ، سيدة النهر التى لا تقهر . ويرتفع الحاجز يوما بعد يوم ، ناميا فوق قلب النهر الذى اغتصبه ، حتى لا يستطيع النهر ان يناله ، فيلطمه بلا أمل ، ويتحول عنه هادرا يبحث عن طريق آخر . طريق جديد . لا يعرفه ، طريق صنعه له الانسان .. ولأول مرة تعبر مياهه ارضا لم يخترها هو ..

ومنذ تلك اللحظة التى غابت فيها الشمس عنه ، داخل الانفاق. تلك الدقائق المرعبة من الظلمة والاسمنت والصخور . تلك الدقائق التى يلطم فيها جدران النفق فى حنق ، مجتازا بواباته التى تهرس جسده ، مصطدما بقواعد التوربينات .. منذ تلك اللحظة القصيرة المرعبة من الظلام المفاجىء بعد رحلة شمس طويلة مرحة . نجده ينطلق حزينا مجروحا مكسورا ، بلا حراس ، هادئا مستكينا تحت عدد لا حصر له من الكبارى الحديدية والخشبية ، وتتسرب قوته خلال آلاف القنوات التى يلعب فيها الصبية عرايا ، ويخترق المدن بلا صوت تسبح فوقه قوارب العشاق ، وتترامى عليه عقود الياسمين وقشور البرتقال .. حتى يدفن نفسه فى اعماق البحر الواسع ..

لقد دقوا فى قلبه المسامير الصخرية وقذفوا فى جوفه أطنانا من الاسمنت والرمال . وضفروا له تاجا من الصلب والصخور ..

***

ولكنه ليس هكذا يبدأ ..

فمنذ اللحظات الاولى لحياته يولد النهر صاخبا عنيفا ، فهو يولد من ضجة وهدير ،وجزء من مائة أبيض لامع بالزرقة مليء بالحياة يدور بعنف حول جزيرة صخرية صغيرة ، ومن أسفل تدور بجنون رغوة زرقاء خضراء تزيد منطلقة الى المجهول .. هكذا يولد النهر .. وهكذا يظل يولد كل يوم وأبدا .. وهكذا ينطلق ، مسرعا الى البحر رسول افريقيا العظيم و « .. أعظم مجرى على وجه الارض ، واكثرها وفرة .. » من أكبر بحيرة فى نصف الكرة الشرقى ، مارا عبر آلاف الاميال . باعلى الجبال واكبر مدن القارة ، وكافة أنواع الطير والحيوان التى تحتوى عليها الجنة .. !

ولم يكن أحد يعرف من اين يولد .. وطيلة اربعة الاف سنة كان الناس يبحثون عبثا عن منبعه .. وكان الفراعنة يعتقدون انه

يتبع من اربعة منابع تغذيه عند أسوان .. وذات يوم ، منذ سبعين عاما فقط ، اكتشف ان النيل يبدأ مسيرته بشلالات ريبون الهائلة على مقربة من خط الاستواء .

لقد اثارت اسطورة المنبع هذه خيال المغامرين ، فانطلقوا يبحثون بالحاح عن لحظة ميلاده . واصبحت رحلاتهم الطويلة الى قلب القارة الافريقية هي الاخرى اسطورة امتزجت بالنهر ..

***

ان النهر لا يولد من المجهول ..

فهناك جسر الى الشمس .. سيل من الامطار يكون بين الشمس والنهر معبرا أزليا ..

ومثلما كان فرعون الها ابن اله .. فان النيل ايضا اصبح الها ابن اله ..

اصبح ابن الشمس .. !

بل صار « حابى » .. أبو الآلهة ..

حابى الاعظم .. ان فاضت مياهه ..

وحابى الاصغر .. ان غاضت ..

ذلك انه ، ككل الآلهة .. كانت له نزوات هائلة .. !

فكثيرا ما كان يفيض فيغرق الاراضى وينشر الخراب والدمار ..

أو يغيض فتجف الاراضى .. وتنتشر المجاعات والاوبئة ..

ومنذ بضعة آلاف من السنين ، كان كاهن معبد طيبة ، بعد ان يتسلم رسالة خاصة من كاهن معبد الفانتين ، يقف فى صحن المعبد ، تحيطه هالة من البخور ، ويقرأ على الفلاحين المنتظرين بقلق..

« ان فرعون أمر النيل أن يفيض ولقد أطاعه النهر ، فى اللحظة الخطرة حينما كاد أن يفقد نفسه فى العالم الآخر .. »

وبعد ذلك بآلاف أخرى ، كتب عمر بن الخطاب رسالة الى عمرو ابن العاص وطلب منه أن يلقيها فى النيل الذى تأخر فى الفيضان ..

والرسالة تقول : « من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، الى نيل

مصر • أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان • عدوته
الواحد القهار هو الذى يجـــريك ، فنسأل الله الواحد ا: • ويرتفع
ه • حتى
يجريك •• »

ويقول المقريزى ان عمرو بن العاص ألقى بالخطاب فى هـــادرا
سنعه له
فما لبث أن فاض فى اليوم التالى ••

وكان الاقباط يلقون فى النيـــل بتابوت من خشب يضم
اصبع من أصابع الشهداء المسيحيين فى اليوم الثامن من شهر بشنس.
ولا يزيد النيل فى كل سنة الا اذا أقيم هذا العيد ••

انه لتاريخ حـافل حقـــا بالمآسي والأزمات ذلك الذى يمتد منذ السنوات السبع العجاف الشهيرة ••

فعلى كثرة ماعرفت مصر منذ البداية من فترات القحط والمجاعات ، لم تمر بها فترة مثل تلك السنوات السبع ، وسبع أخرى مثلها فى العصر الاسلامى •• فى زمن المستنصر بالله ، من ٤٥٧ هـ الى ٤٦٤ هـ •

وقد وصف صاحب النجوم الزاهرة هذه المحنة . فقال : « بلغ الغلاء العظيم بمصر منتهى شدته الذى لم يسمع مثله فى الدهور من عهد يوسف الصديق عليه السلام ، واشتد القحط والوباء سبع سنين متوالية حتى أكل أهلهـا الجيف والميتات وأفنيت الدواب وبيـع الكلب بخمسة دنانير والهر بثلاثة دنانير • ولم يبق لخليفة مصر سوى ثلاثة أفراس بعد العدد الكثير •• ونزل الوزير يوما عن بغلته فغفل الغلام عنها لضــــعفه من الجوع فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها • فأخذوا وصلبوا فأصبحوا وقد أكلهم الناس ولم يبق الا عظامهم • وظهر على رجل أنه كان يقتل الصبيان والنساء ويبيع لحومهم،ويدفن رءوسهم وأطرافهم فقتل • وبيعت البيضة بدينار ، وبلغ اردب القمح مائة دينار ثم عدم أصلا •• » •

وكان الناس يقفون فى الطرقات فيقتلون من يظفرون به ، ويأخذون ماله ، حتى أن امرأة قبض عليهـا وأدخلت الى منزل فيه سكاكين وآثار دماء وقطع أهله شرائح من أفخاذها لأنها كانت سمينة ! •

وبعد ذلك بثلثمائة عام بلغت الزيادة فى النهر ٢٤ ذراعا ، وغرقت بساتين جزيرة الفيـل وطريق شبرا والمنيـا ، وغرقت منازل الحسينية والروضة وبولاق • وخرج الناس الى الصحراء ودعوا الله تعالى بهبوطه •• فهبط الماء أربع أصابع ثم وقع بعد ذلك وباء رهيب ••

وقد كان فيضان هذا العام أقل الفيضانات التى رأتها مصر منذ أربعين عاما .. وكان يمكن أن تتعرض البلاد لخطر المجاعة .. وتتعرض الارض للعطش لولا المياه التى حجزها السد منذ مايو ١٩٦٤ ..

كما أن فيضان عام ١٩٦٤ كان أخطر فيضان شهدته البلاد منذ خمسة وعشرين عاما . وكان من الممكن أن تغرق شطئان النيل .. ومعها ذلك الشريط الأخضر الضيق حتى أسيوط . لولا الحائط العظيم بتاجه من الصلب والصخور ، الذى نهض شـامخا وسـط النيل فى مايو ١٩٦٤ ، ليطوى الى الأبد صفحة الفيضان الدامية من تاريخ بلادنا ..

***

لقد كان الكهنة هم مهندسو مصر القديمة .. وكانوا يحتفظون بمقاييس النيل داخل المعابد ، وعليها حراسة قوية ، لا يقرأها غيرهم ..

وعلى أساس التقارير التى كانوا يرفعونها الى فرعون ،كان‌هذا يقدر الضرائب الجديدة على الارض طبقا لحالة الفيضان القادمة ..

ان أول مقياس للنيل على حدود مصر مازال بالامكان مشاهدته فى الفانتين .. وبالقرب منه يربض السد العالى الآن بأنفاقه الستة متحكما فى النيل كما لم يتحكم فيه شىء طوال تاريخه السحيق ، وبدلا من الكاهن ، سيقف المهندس المصرى يحسب ويراقب ، ويفتح ويغلق ، ويرسل الخير من أسوان الى مصر كلها دون مراسيم كهنوتية ودون ضرائب جديدة ، ودون صلاة أو تضحيات أو ثيران مذبوحة أو عذارى يلقون فى الماء ، فبدلا من ذلك وضع الرجال الصخر والحديد والانفاق والبوابات .. ليأمروا النهر الذى سيطيعهم دون مقاومة .. لكن صدى أغنية الحب القديمة التى كانت تتردد عبر شواطئه الفرحة ، لن يخفت أبدا ..

لأن قاربى مضىء فوق الماء
ورأسى مكللة بالزهور ..
هكذا أسرع الى أعمدة المعبد
والى عديد من الساعات السعيدة
فالاله العظيم‌بتاح
جعل النهر يأتى فى موعده
وجعل حبيبتى تأتى الى هذه الليلة
بفرح كبير
وغدا .. فى ضوء القمر ، سأراها أجمل !

- ٢ -

والحق أن انسان مصر قد فكر منذ القديم فى محاولة السيطرة على ماء النيل ، دون أن يتركه تماما للآلهة ٠ !

فقد كانت هناك محاولات لاقامة الجسور فى عهد الملك مينا ، أى منذ اربعين قرنا قبل بدء التاريخ الميلادى ..

ودلت أقدم الحفريات على أن المصريين القدماء تنبهوا الى الاستفادة الى أقصى ماتسمح به تجاربهم - من مياه الفيضان ، فقد كان الفيضان يغير على جانبى الوادى ، ويظلون هم فى قراهم المرتفعة الى أن ينحسر الماء فيزرعوا الأراضى المنبسطة ، ويقيموا السدود حول الوديان والفجوات لكى ينتفعوا بمائها فى زرع محصول آخر .. وهداهم تفكيرهم حينئذ الى اختراع الشادوف ثم الساقية ..

واستنبط المصريون نظام الرى الحوضى منذ آلاف السنين ، وفيه يترك ماء النهر فى فصل الفيضان ليغطى أراضى الحياض بعمق متر ونصف فى المتوسط ولمدة ٤٥ يوما ، حتى اذا ما انخفض منسوب الماء فى النهر ، عادت مياه الحياض الى مجراه بعد أن تكون الارض قد رويت استعدادا لظمأ طويل ، وبعد أن يكون الغرين الذى حمله النهر من هضاب الحبشة قد أمد التربة بخصب جديد ، يعوضها عما فقدته فى العام السابق ..

وكانت الاراضى تنقسم الى أحواض تفصل بينها سدود ترابية تمتد بين جسر النهر وحافة الصحراء ، وكانت تغذى هذه الاحواض ترع يمدها النيل بالماء فى زمن الفيضان ، فاذا جاء الجفاف وهبط منسوب النهر أصبحت مآخذ هذه الترع أعلى من منسوب النهر فلا يصل اليها الماء ٠ ولم تكن هناك قناطر تنظم العلاقة بين النهر والترع اللهم الا سدود من الحجارة تزال سنويا حينما يراد لمياه الفيضان أن تدخل الاحواض ٠

وكان منظر البلاد فى موسم الفيضان أشبه ببحيرة عظيمة فى قلب الصحراء ، متوسط عمقها متر ونصف ، وتقطعها حوائط سميكة من التراب ، وفى وسط هذا الخضم تقوم القرى ، وكأنها الجزر فوق تلال خلقتها الطبيعة أو صنعها الانسان ، ومن هنا كانت القرية المصرية منذ فجر تاريخها كتلة متراصة لايفصل بين بيوت فلاحيها سوى الضيق من الشوارع والحارات ، وكانت القوارب هى وسيلة النقل بين القرى فى

موسم الفيضان • ويتبطل الفلاحون فى هذا الموسم ، فاذا ماجفت الارض عادوا الى العمل ، وليس لهم الا محصول واحد فى السنة أغلبه من الحبوب •

ومنذ عهد محمد على بدأت محاولة جديدة تمخضت عن السياسة المائية التى تعرف بالرى المستديم • وكانت الخطوة الأولى هى حفر الترع الصيفية ، وهى ترع عميقة بحيث لاتجرى بمياه الفيضان وحدها بل وبمياه الصيف أيضا ، وهى فى هـذا تختلف عن الترع النيلية التى لا تجرى بالماء الا حينما ترتفع مناسيب النهر العظيم ، ولابد ان تظل لهذه الترع أعماقها ، اذا أريد منها أن تؤدى الغاية التى أنشئت من اجلها ، وهو أمر شاق فمياه الفيضان غنية بالرواسب تلقي بها في قاع الترع فيرتفع القاع ، ويتطلب تطهيرا عقب كل فيضان ، يعمل فيه – بالسخرة – أكثر من نصف مليون فلاح لمدة شهرين فى كل سنة•• بلا أجر •• وبعيدا عن قراهم وأهاليهم •

هكذا ولدت ترعة الابراهيمية التى تروى اليوم مليون فدان • وتطور الامر بعد ذلك الى شبكة محكمة من الترع تقابلها شبكة مماثلة من قنوات الصرف •

وتطلب النظام الجديد اقامة القناطر والخزانات على نهر النيل لرفع منسوب المياه الى مستوى القنوات من جهة ولتخزين كمية ماء من جهة اخرى .

وبدات سلسلة مشروعات تخزين المياه ورفعها بانشاء القناطر الخيرية .

ففي عام ١٨٣٣ اصدر محمد على أوامره الى مهندسه الفرنسى لينان دى بلفو بنزع أحجار الاهرام لاستخدامها فى بناء القناطر . ! وكان من المحتمل ان تفقد مصر اهرامها لولا ان وفق المهندس الى اقناع تاجر الدخان بأن اقتلاع الاحجار الجيدة من محاجرها أقل نفقات من نزع احجار الاهرام ..

وبدات سلسلة القناطر تنتشر على نهر النيل من اسوان الى البحر الأبيض ..

ثم اتضح ان المياه التى تجرى فى النيل لا تكفى لبرنامج التحول الى الرى الدائم .. وبدأ البحث عن مكان للتخزين .. وظهرت فكرة

استخدام النهر نفسه كخزان باقامة سد يحجز المياه أمامه فلا تنفذ منه الا بالقدر الكافي للحاجة ..

ومنذ تلك اللحظة لم يعرف النهر سلاما ..

ففي ١٩٠٢ تم انشاء سد اسوان ، أول سد من نوعه في العالم ، كما كان يوصف وقتها . وكانت سعة التخزين به مليار متر مكعب أصبحت بعد التعلية الاولى عام ١٩١٢ الى مليارين ونصف مليار . ثم اصبحت بعد التعلية الثانية في عام ١٩٣٣ تزيد على ٥ مليار متر مكعب.

وفي عام ١٩٤٥ ، مع ازدياد حاجة البلاد الى المياه ، جرى التفكير في تعلية الخزان للمرة الثالثة . ولكن الفكرة استبعدت لصعوبتها ..

وفي عام ١٩٤٨ ، وضعت خطة لانشاء عده خزانات للتخزين المستمر والتخزين السنوى كلها خارج حدود مصر .. تقام بامو الناء ثم تصبح بعدها تحت رحمة الظروف . فضلا عن انها كانت قاصرة على تخزين المياه الصافية من الطمى فقط . والتى لا يتجاوز مجموعها ١٤٪ من ايراد النهر الكلي .. كان لابد من التحكم الكامل في مياه النهر ..

ويلزم لذلك تخزين طويل الامد وبالتالى سعة هائلة تضمن استقبال الزيادة في سنين عالية متتالية ، وتضمن وجود رصيد مخزون من المياه لسد النقص في السنين الواطية أى خلق فيضان صناعى ذى ايراد ثابت معلوم ..

وكان المطلوب هو أن نعترض المجرى بجبل هائل يقف في وجه المياه .. سد عال يسع ١٥٧ مليار متر مكعب من الماء تستوعب الفيضان كله والطمى . !

***

لقد مضى الآن قرابة العامين على سد مجرى النيل .. ولا زالت أمامنا سنوات حتى ينتهى البناء تماما في السد ..

ان ٢ مليون فدان تنتظر الخصب والمياه لتتحول الى أراضى زراعية صالحة تماما للزراعة . ولكننا تمكنا في العامين المنصرمين من ان نحول ٥٠٠ الف فدان من أراضى الحياض الى رى دائم ، وبعد أن كانت تزرع مرة واحدة أصبحت تزرع ثلاث مرات تماما كأراضى الوجه البحرى .

وقد استغرقت عمليات الحفر ٨ أمثال المسافة بين البحر الابيض واسوان • فى الصعيد .. بدأت بـ ١٥ الف عامل عام ٦٣ وانتهت بـ ٤٠ الف عامل يعملون يوميا فى المحافظات ..

لقد دبت الحياة فى الوادى الضيق الذى تحده تلال تقبض عليه قبضة فكى كلب صيد على الفريسة ، كما وصف كاتبنا الكبير يحيى حقى الصعيد فى كتابه « دماء وطين » .

وفى هذا الكتاب أورد يحيى حقى صورة رائعة لأهل الصعيد ..

كتب يقول : « ... ووصلت الى آذاننا تلك المقطوعات الحزينة العميقة ، تنبعث بين أكوام الحجارة حيث يضطجع الفعلة ــ وجلهم من أبناء الصعيد ــ حول النار يصطلون اذا كان الوقت شتاء ، أو يتنسمون الهواء العليل اذا كان صيفا ، ويرددون أغانى لهم يتذاكرون بها وطنهم واهلهم واحبابهم .. وهم ساهمون برغم تعب النهار .. كأنما تؤرقهم الذكرى ..

« هؤلاء هم الصعايدة : قوم جاءوا من بلاد نائية ، حرها شديد ، وزرعها قليل • تغمر مياه النيل أراضيهم ــ الحياض كل عام ــ فيبطل العمل ويحلو الاجتماع والسهر على جسور النيل . ثم تتخطفهم الهجرة الى القاهرة والاسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، فيترك الأب أبناءه ، وزوجته ، والابن أمه واباه ، والعاشق حبيبته ، طلبا للقمة العيش .. حياة محفوفة بالشقاء والترحال والفراق تلهب احساسهم وتذكى عواطفهم .. »

... صفحة طواها السد من حياة الصعيد .. لتبدأ صفحة جديدة ، يتنفس فيها الوادى الضيق الحياة .. ويعمل فيها الرجال السمر طول الوقت .. لا يهاجرون ولايقطعون الطرق .. ولا ينوحون .. !

- ٣ -

ان تاريخ محاولة السيطرة على ماء النيل هو نفس تاريخ مصر السياسى . ! مثلما هو تاريخ النهر ذاته ..

لقد ربط النيل بين مصر بوابة افريقيا الذهبية الشمالية ، وبين جنوبها الاسطورى الدامى ،وبالمثل أيضا ربط بين شعبها المتناثر على طول الشريط الاخضر الضيق الذى يفصل الصحراء عن المياه .

ومنذ توحدت مصر منذ أكثر من خمسة آلاف سنة على يد القائد الفرعونى مينا ، لم يكف فراعنتها ابدا عن وضع زهرة اللوتس المقدسة فوق تيجانهم الموحدة بين الشمال والجنوب ، دلالة على دور النيل الفعال فى ربط الشمال بالجنوب .

لقد خلق النيل فى مصر اول نظام حكومى فى العالم القديم ، بيروقراطية ذكية ، تحكم الوادى كله من طريق مئات من الكتبة والكهنة وجباة الضرائب .

وفى مواسم تحاريقه جمع فرعون الفلاحين ليبنوا الهرم .. وفى مواسم فيضانه جمع الكهنة الفلاحين ليصلوا له ويقدموا مزيدا من الضرائب .

ومثلما ارتبط مصير الفلاح المصرى بالنيل ، كذلك ارتبط مصير الصياد الأفريقى بالنهر ..

ومثلما هبطت سفن الغزاة فى ابى قير ، كذلك صعدت سفنهم الى أعالى النيل تحمل الموت والمرض .

وعرف النهر أكثر المآسى وحشية ، وامتزج ماؤه بدماء الملايين من البشر ، عبر المستنقعات والغابات والسهوب ، وانهالت فيه ضربات الخناجر المسمومة والسياط التركية والرصاص الانجليزى ، الذى انطلق من فوق قمم جبال القمر حتى كوبرى عباس فى القاهرة عندما حاصر الانجليز المتظاهرين المصريين وفتحوا الكوبرى عليهم ، وامطروهم بالرصاص ..

وعلى شاطئه الافريقى الغربى كانت تدور الى عهد قريب ، اكبر عملية بيع بشرية .. فمن هناك انطلق النخاسون من كل شعب ، يصطادون الزنوج ، ويربطونهم بالحبال ويسوقونهم بالمسدسات الى السفن الراسية على ساحل الذهب أو ساحل العاج ، التى تحملهم الى أوربا وأمريكا والى كل جزء من العالم « المتحضر » .

وطوال قرون طويلة عاش الفلاح المصرى بنفس الطريقة التى عاش بها أجداده .. فهو مازال يستعمل نفس الادوات مثل المحراث والشادوف والنورج .. ومازال يحسب مواعيد البذر ، والحرث والرى بنفس الطريقة التى كان الفلاح القديم يحسب بها .. لكن فلاح مصر الطيب البسيط لم يكن دائما طيبا وبسيطا أمام الشر والعنف ، ففى عام ٢٣٥٠ق.م . قامت أول ثورة فى التاريخ البشرى كله .. قامت هنا على ضفاف النيل ضد الكهنة والاثرياء .. وصاح الفقراء يومها : « فلتسقط السلطة » !

وطوال بضعة آلاف سنة ، عبر اجيال من المهانة والعذاب والسخرة منذ الهرم الأكبر حتى فاروق سليل محمد على المغامر ، ظلت مصر تبحث عن قلبها الممزق .. وعلى طول شاطىء النيل المصرى من وادى حلفا حتى الدلتا ناح الفلاحون على الناى ليلا .. وناحت الفلاحات نهارا وهن يهرولن خلف ابنائهن الذين اخذهم الاتراك او محمد على او الانجليز ليحاربوا لهم .. واحترقت السواعد العارية بلهيب الشمس وهى تبنى بالسخرة .. وتوهجت العيون بلهيب البغضاء والغضب وهى تتراجع أمام مهندسى الانجليز وعساكرهم .. وحمل النوبيون السمر أشياءهم القليلة وغادروا قراهم التى دهمتها مياه الخزان ، ليبحثوا عن مأوى فى ركن من أركان البلد التى أنكرتهم .

.. حتى عثرت مصر على أوزيريس ذات ليلة ، فاشعلت أول ثورة اجتماعية معاصرة فى افريقيا ، ثورة يوليو ١٩٥٢ ..

وبدات صفحة جديدة فى حياة النهر العظيم .

ومثلما طرد الغزاة من الاسماعيلية وبورسعيد .. عادت بهم سفنهم من كل مكان على طول الشاطىء الأسمر ..

وعندما تلفت المصريون ليبنوا حياة جديدة .. لم يجدوا غير النيل يلجئون اليه .. ولكن ..

ولكن جريدة مثل الفاينانشيال تايمز الانجليزية كانت لا تزال تستطيع أن تقول بكل صفاقة : « لو توخت مصر جانب الحكمة لركزت اهتمامها فى دراسة برامجها السياسية والاقتصادية دراسة شاملة لترى ما اذا كان من الممكن تنسيق هذه البرامج بحيث تتمشى مع مقترحات الغرب .. فاذا ما اظهرت مصر انها على استعداد لأن تفعل ذلك لن يجد الغرب مانعا من منحها كل معونة ممكنة » ..

وعندما رفضت مصر التبعية ، واعلن دالاس سحب العرض الامريكى للمساهمة فى السد لأن : « التطورات التى شهدتها الشهور السبعة الاخيرة لم تكن ملائمة لنجاح المشروع » !

وفى وسط النهر — واصلا بين ضفتيه — وبالقرب من المكان الذى اقام فيه المصريون منذ اربعة آلاف سنة تمثالا لاله الاخصاب

والخلق ، حارسا للنيل ، انتصب حارس جديد .. هرم رابع .. هو أكبر هرم فى التاريخ .

وخلق الهرم الجديد روحا جديدة فى عصر السياسة المنهبة والكتل .. فوق جسده الجرانيتى ، ترك العالم صراعه الدامى ، واخذ آلات بنائه ليشيد ويعمر وينفذ . ومثلما قدم أبناء الشمال للسد عمرهم ودمهم ، أعطاهم النيل تجربة حياة جديدة وكنزا من الحكمة التى يحتفظ بها فى أعماقه . ولاول مرة فى تاريخ مصر يصطلح المصريون مع الأجانب ويعملون معهم كتفا لكتف ، وقلبا لقلب ، بمشاعر الحب والثقة والأمل ، « بجبارات » على الشاطىء تنقل الرجال والرمال والصخور ... دون سخرة أو سوط أو شروط !

ومثلما غير الشعب المصرى طريقه ليبنى حياة جديدة ، غير النهر طريقه القديم واختار طريقا جديدا ..

ليس هذا فحسب ..

بل أن مياهه ستعرف جسد أرض جديدة ، لم يلمسها الانسان منذ خلقت ، بكر عذراء ، سوف ترتعش شفاهها المنتظرة حينما تتلقى قبلاته ، فينتفخ جسدها المتعطش للحياة حينما تندفع مياهه الحمراء اليها .. وهناك ستلد الأرض حياة جديدة ورجالا جددا . هناك فى ذلك الزواج الذى طال انتظاره آلاف السنين ستزهر الأرض لبنا وعسلا وخيرا .. وهناك ولأول مرة فى تاريخ مصر كلها يمتلك الفلاح أرض مصر الجديدة ، بعد أن حررها أوزيريس ، هذه الأرض ستمتلكها مصر كلها . لا بضعة مئات ، لأنها ثمرة نضال الشعب كله وثمن انتصاره وثمن انتظاره الطويل ..

وعلى ضفاف النهر الجديد سوف يختفى الظلام . لأن روحه الجديدة سوف تمسح الظلام من القرى مثلما مسحت ايزيس دموعها بكف حوريس ابنها ومحررها .. وسوف يتحرك النهر من اسوان الى الاسكندرية ، من مدينة الفراعنة القديمة الى البحر الأبيض ، فى مهرجان من الضوء والخضرة والفرح .

أبنـاء الشمال

- ١ -

كان موعدنا معه فى الثامنة مساء بمنزله ..

ومنذ الخامسة ونحن نتابع الساعات والدقائق فى لهفة ..

فهى المرة الاولى التى نلتقى بها باحد ابناء الشمال فى منزله !

فمنذ اللحظة الاولى التى وصلنا فيها الى اسوان ونحن نلقاهم فى كل مكان .. رايناهم لأول مرة فى شوارع اسوان نشطين مسرعين .. وتعلمنا كيف نفرق بينهم وبين السياح .. من مظهر النشاط البادى عليهم .. ومن اناقتهم .. !

فهم يقودون سياراتهم بسرعة ويتحركون بسرعة .. بحماسة من يعرف أنه هنا لوقت محدد .. وأنه سيغادر هذا المكان بعد أن تنتهى مهمته .. ومهمته بالتحديد هى أن يلغى مهمته .. ! اى يعد من المصريين من يحل محله ..

وليس سرا أن عددا كبيرا من الخبراء الروس قد عاد الى بلاده قبل الوقت المحدد .. فقد تعلم المصريون بسرعة .. فأعلن الروس انتهاء مهمتهم قبل الموعد رغم ما تسببه عودتهم المبكرة من ارتباك فى اقتصاد بلادهم الذى يقوم على خطط محددة بالسنة والشهر واليوم..

والمفاجأة التى واجهتنا بالفعل ، هى اناقة الشاب الروسى الذى تقابله فى المدينة بعد الظهر الاحذية المدببة ، والبنطلونات الضيقة والقمصان الملونة .. !

اما فى العمل .. فى السد .. فمن الصعب أن تميز بين الروس والمصريين .. فى البداية كنا نعتمد على غطاء رأس حديدى يرتديه بعضهم . ثم تبينا أن معظمهم كف عن استعماله .

واحيانا كنا نتعرف عليهم من الترامس الكبيرة التى يحملونها على أكتافهم عند انصرافهم أو مجيئهم ..

ولكن التعرف عليهم كان صعبا دائما بسبب ملابس العمل التى لا تفرق بينهم وبين المصريين . وعندما يعمل الروس فهم يعملون . فشلنا تماما فى أن « ندردش » مع احد منهم اثناء العمل . وظننا فى البداية أنهم متحفظون لا يحبون الحديث مع المصريين . ثم تبينا بعد قليل أن السبب هو « رابوتى » .. أى العمل .

لهذا كان لقاء الليلة مثيرا حقا .

***

اقلنا الاتوبيس من الموقع الى كيما .. المدينة السكنية الضخمة التى يسكن فيها عدد كبير من الروس ..

المنازل عبارة عن عمارات ضخمة فى صفوف .. كل صف مكون من اربع عمارات تفصلها حديقة .. وعلى أبواب هذه العمارات مصابيح كهربائية مضاءة .. وتحتها — فى مدخل كل منزل — تجمعت حلقة من السيدات الروسيات يثرثرن ..

وعثرنا على مسكن « يفجينى باركوفسكى » بسهولة .. وعندما ضغطنا جرس بابه فتح لنا على الفور ..

كان باركوفسكى يرتدى قميصا من تلك القمصان التى تأتى من غزة وتباع فى شوارع القاهرة وتغسل ولا تكوى ! وكان بنطلونه ضيقا وحذاؤه مدببا . وذلك كله رغم انه جاوز الاربعين وامتلأ شعر راسه بالبياض .. !

وقال لنا مهندس ادارة التخطيط فى هيئة السد العالى : باجلستا ! ..

***

ولمدة ساعتين لم نكن نكف عن الحديث الا لنجيل أبصارنا فى أنحاء الشقة الصغيرة الانيقة نتأمل محتوياتها ثم نعود الى باركوفسكى بسؤال جديد ..

كان اثاث الشقة شديد البساطة : مائدة من الصاج فى الصالة تحيط بها عدة مقاعد . سرير فى حجرة النوم وتسريحة صغيرة . الصالة بها ثلاجة أيديال .. والمطبخ به بوتاجاز .. والحمام به سخان ضخم .. نسينا شيئا آخر فى حجرة النوم .. قفازين كبيرين للملاكمة

يتدليان من المشجب وأسفلهما على الارض قضيب حديد من قضبان رفع الاثقال التى لم نرها منذ تركنا المدارس .. !

وفى كل منازل الروس التى دخلناها بعد ذلك ، كان قفازا الملاكمة وقضيب الحديد ، هما اول شىء تقع عليه عيوننا ..

وانهلنا على باركوفسكى بالاسئلة .. وهو لا يكف عن الابتسام والضحك .. ضحكات طويلة صافية يحمر لها وجهه .. وتبرز بها ثلاث اسنان ذهبية فى فمه ..

ما الذى جاء به من بلاده .. من درجة حرارة تهبط عن الصفر الى درجة حرارة لا تهبط عن الأربعين وتصل احيانا ــ كما لمسنا بأنفسنا ــ الى الستين ..

والاكثر من هذا أن باركوفسكى جدد عقده مرة . وينوى أن يجدده مرة ثانية ..

وفى بساطة تامة ــ دون خطب ودون مجاملات دبلوماسية ــ تكلم الرجل ..

قال ان مصر كانت بالنسبة له دائما أسطورة قرأ عنها الكثير .. كانت رؤيتها حلما يداعبه دائما .. ولم يكن من الممكن أن يتحقق هذا الحلم أيام فاروق ..

وقال انه مهندس .. ولكل شخص يريد ان يتقدم فى مهنته ، يبحث دائما عن الخبرة الجديدة . والسد العالى فرصة لا تعوض بالنسبة لأى مهندس .. فهو مجهز على مستوى عال . بأحدث الآلات وافضل الاخصائيين فى فروع جديدة . ثم هناك تجربة التلبيس بالرمال وهو تكتيك جديد يطبق هنا لاول مرة على نطاق واسع ..

وقال انه انسان سوفييتى .. والانسان السوفييتى يعتبر بناء الاشتراكية فى أى مكان فى العالم قضيته الخاصة .

كان الاحساس الذى ينتقل الينا عبر مائدة صفت عليها زجاجات البيرة بجوار كوم من الكتب والمجلات ، هو احساس بالرضا عن النفس .

احساس الانسان الذى قام بواجبه نحو بلاده ، ونحو اخوته فى الانسانية ، ونحو نفسه ..

احساس ابن الاشتراكية الذى يتسع احساسه بالوطن فيشمل العالم كله ..

ولكن الصورة تختلف قليلا عند كبار الخبراء .

وقد تحدثنا مع الأربعة الروس الكبار فى السد .

الكسندروف كبير الخبراء ، ورادتشنكو نائبه الذى قابلناه قبل أن يعود الى بلاده نهائيا بأيام .. ثم سميرنوف نائبه الجديد .. وأخيرا ماليشيف ، كبير المصممين .

والظاهرة المشتركة بين كافة الخبراء الروس الكبار .. هى انهم جميعا اشتركوا فى الحرب .. وفى بناء اضخم المشروعات المائية والكهربائية فى الاتحاد السوفييتى .. ثم فى البلاد الاجنبية .

ان تاريخ أى واحد منهم هو نفس تاريخ الاتحاد السوفييتى .. البناء ثم الحرب .. العودة الى التعمير .. مساعدة البلاد الصديقة..

ولذلك فالخبراء الروس الكبار مقاتلون ..

تشعر بهذا وانت تجلس امام الكسندروف القصير المتين .. ذى الضحكة الهادئة التى تنفرج دائما عن سنة ذهبية .. والذى يتحدث بثقة واعتداد وبساطة ..

وتشعر به أمام رادتشنكو ذى العينين الزرقاوين الذكيتين . وأمام سميرنوف بوجهه الممتلىء الطيب وشعره الأبيض .. وماليشيف بوجهه الجامد القسمات الذى لا يشى بشىء من مشاعره .. ورادتشنكو هو أطولهم اقامة فى اسوان .

جاء لاول مرة فى نهاية عام ٥٩ مع اول مجموعة من الخبراء .. وكان عددهم ثمانية . عادوا جميعا واحدا بعد الآخر .. وكان هو آخر من بقى منهم حتى عاد بعد أن قضى ست سنوات فى المدينة التاريخية .

ان الشىء الذى يحسه باركوفسكى ويحركه عاطفيا ويجمله — الى جانب حماسه للمكان وللتجربة وللحافز المادى — يجدد عقده للبقاء فى اسوان .. يدركه أمثال رادتشكنو بشكل واع محدد ..

ولا زلنا نذكر كلماته القاطعة المحددة ..

« من وجهة نظر المعيشة أو الترفيه لم يكن العمل هنا ممتعا

دائما .. اننا اذ نعمل هنا لا تدفعنا منافع مالية او مادية .. ففى بلادنا يحصل المهندسون فى مستوانا على منافع كثيرة .. اسألوا اذن ما الذى ابقانا هنا ؟ اننا ننظر الى العمل هنا كمسئولية هامة على حكومتنا . ونحاول ان ننجز هذه المهمة على احسن شكل .. ونحن نفهم جيدا اهمية العمل هنا ... اننا ندرك مسئوليتنا « أن الفائدة من بقائنا هنا هى نفسها التى تعود من عملنا فى بلادنا . فنحن ندرك أهمية مساعدة العرب » .

والرجل الذى حل محل رادتشنكو اسمه سميرنوف كيريل ايفانوفتش ·· يشع وجهه بطيبة الأب · ويحمل على ظهر يده وشما أخضر بارزا ·· !

وعندما سألناه عن هذا الوشم قال انه عندما كان صغيرا كان يحلم بان يصير من بحارة الفولجا .. فدق فراشة على يده تشبها بالبحارة ..

وسميرنوف تخرج من نفس المعهد الذى تخرج منه رادتشنكو ولكن بعده بأربع سنوات ، ومر بنفس الطور الذى مر به الأول .. اشترك فى المشاريع الضخمة .. وكان مع الكسندروف فى مشروع قناة الفولجا ·· دون التى جعلت من موسكو « ميناء البحار الخمسة » قزوين والبلطيق والأبيض والأسود وأزوف ..

وكانت فكرة ربط الفولجا بالدون حلما قديما ·· تماما كحلم السيطرة على النيل فى بلادنا · ففى القرن السابع عشر حاول بطرس الاكبر تنفيذ الفكرة ولكنه فشل ·· وكان على الحلم أن ينتظر ٢٠٠ سنة قبل أن يتحقق ··

وعمل سميرنوف مع الكسندروف أيضا فى محطة كويبشيف ، ونال على دوره فيها لقب بطل العمل الاشتراكى للمرة الثانية ·· وكانت الأولى بعد محطة انتهاء قناة الفولجا ·· دون ··

وقد كانت محطة كويبشيف فى ١٩٥٧ أكبر محطة للطاقة فى العالم كله .. وقوتها مليونان ـ كيلو وات . أما أكبر محطة اليوم فهى كراسنويا رسك فى سيبيريا وقوتها · مليون كيلو وات · وفى احدى عمليات هذه المحطة تم تحويل نهر يانسى فى سيبيريا · وتلقى العاملون فيه برقية تهنئة من العاملين فى السد ·· وارسلوا بدورهم تهانيهم الى عمالنا عندما حولوا نهر النيل ·

وقد نال الكسندروف أيضا ــ الذى يتمتع بشهرة عجيبة بين أبناء بلادنا ·· لقب بطل العمل الاشتراكى مرتين ·

اما ماليشيف فهو أصغر هؤلاء الخبراء الكبار فنا . فهو لم يتجاوز بعد الثالثة والخمسين · وعندما قابلناه كان يجلس أمام خرائط مشروع تخزين المياه فى أسوان · وكان آتيا لتوه من الاتحاد السوفييتى ·· وسيعود اليه ثانية بعد أيام ··

وماليشيف نموذج فريد من الخبراء السوفييت ··

انه الوحيد الذى يحتم عليه عمله التنقل بين الاتحاد السوفييتى واسوان · عدة شهور فى بلاده وعدة شهور فى بلادنا وهكذا ··

وهو يأتى دائما مع الفيضان .. وكان مجيؤه هذا العام للمرة الثانية عشرة .. وفى العام الماضى ظل فى أسوان تسعة شهور كاملة .

وكان ماليشيف مع السد من قبل ان يبدأ العمل ·· منذ اللحظة التى كان فيها فكرة على الورق وكان وقتها مسئولا عن معهد فى موسكو اسمه « معهد أبحاث السد » ·· وقد قادته خبرته ومسئوليته الى أماكن عديدة من الكرة الارضية ·· مراكش والجزائر ·· السودان ، أثيوبيا ، الصين ، سوريا ·· الولايات المتحدة وكندا والبرازيل ··

***

ولقد لخص لنا الكسندروف مشاعر هؤلاء الخبراء الكبار ··

وكنا نسأله عن حقيقة اشاعة سمعناها عن مرضه وعن احتمال عودته نهائيا الى بلاده ·· وجرنا الحديث الى رأيه فى سير العمل ، ومشروعاته بالنسبة للمستقبل ··

وقال الروسى ذو الضحكة الذهبية ··

« انى اشعر بالرضا التام عن سير العمل .. طول حياتى كنت ابنى الطرق والمنشآت والقنوات ومحطات الكهرباء .. وعند كل عمل كنت أشعر دائما بالرضا عن نفسى ·· وليست لدى الآن سوى رغبة واحدة ·· هى أن ينتهى السد بنجاح ·· ولست أعلم ماذا سأفعل بعد ذلك · فهذا من شأن الحكومة السوفييتية » ·

- ٢ -

قال لنا مهندس مصرى صديق كأنما يمدنا بمفتاح لفهم الروس : انهم يعملون كثيرا ويأكلون كثيرا . ويمرحون كثيرا ..

وليس فى هذا شيء غير عادى . الغريب فعلا هو تكيف الروس مع طقسنا الرهيب ..

لقد جاء وقت لم نكن نستطيع الحركة فيه . نلهث بعد دقائق من المشى فى الشمس فنهرع الى غرفتنا المكيفة الهواء .. بينما لا يكف الروس عن العمل ، برءوس عارية ووجوه مبتسمة كأنما لم يحدث شيء . ويجرى أولادهم الصغار - الذين ولدوا فى الجليد - ويلعبون ببساطة فى عز الشمس ..

والشكوى الوحيدة التى سمعناها كانت من رادتشنكو .. وكانت تشير الى الماضى .. فقد قال لنا أن العاملين الاولين للمشروع كانا قاسيين بدون تكييف ، ووقتها لم تكن كمية الكهرباء القائمة تكفى لادارة أجهزة التكييف (كنا نلهث من الحرارة ونحن نكلمه، وكان هناك جهاز ما للتكييف فى الحجرة . وجهاز آخر ينتظرنا فى حجرتنا . كيف بالله تكون الحياة بدون هذه الاجهزة ؟) .

***

والمثير فى الروس فعلا هو أن حياتهم فى السد مليئة تماما . رغم الجو وندرة وسائل الترفيه . وانهم استطاعوا ان يحتفظوا بقربهم من التطورات المختلفة فى كل ميدان فى بلادهم وفى العالم وهم فى هذا المكان النائى .

عندما كان فى بيت باركوفسكى اثار انتباهنا كوم الكتب والمجلات فوق المائدة الوحيدة بالمسكن .

كانت الكتب بالروسية بالطبع .. بابيت لسنكلير لويس ، عصر العقل لايفان يفريسوف ، وهو من كتاب القصص العلمية الخيالية الروس، ومجلة النجمة وهى مجلة أدبية يصدرها اتحاد الكتاب السوفييت .. ثم اعداد من مجلتى لايف وتايم الامريكيتين (كان باركوفسكى يتعلم الانجليزية) .. احدث عدد لمجلة روسية انيقة اسمها مجلة الأدب الاجنبى وكانت احدى صفحاتها مطوية حيث كان يقرأ باركوفسكى .. وكان

الموضــوع هو آخر مسرحية لآرثر ميلر ، اســمها « كل شيء حدث فى فيشى » .. التى نشرها ميلر فى نيويورك قبل ان تنشرها المجلة الروسية بشهرين ..

وكانت هذه أول مرة نسمع فيها عن هذه المسرحية ..

وكانت هذه المجلة تضم أيضا دراسة عن فريدريش دورينمات . وعندما الحفنا على الصديق الروسى الذى يترجم لنا ، ان يعطينا فكرة عن اتجاه الدراســة ، قال انها لا تحكم عليه بأى شىء وانما تبرز الجوانب المختلفة من أدبه فحسب ، وتؤكد على ايجابية الكثير منها ..

ويحتفظ كل روسى بمكتبة صغيرة فى منزله فضلا عن الكتب التى يستعيرها من المكتبات .

وللروس فى اسوان مكتبتان اساسيتان . واحدة فى الغرب ،فى النــادى الروسى بصـــحارى . والثانية فى الشرق ـ فى النادى الروسى بكيما ..

والمكتبة عبارة عن كشــك صغير فى فناء النادى .. وتضم مكتبة كيما ٢٠٠٠ كتاب و ١٥٠٠ مجلة . وفى النادى يقضى الروس نصــف حياتهم فى اسوان ..

فيه صالة طعام كبيرة ، واخرى للاجتماعات ، وثالثة للبلياردو ، ورابعة للسينما أو الرقص ..

والأفلام والندوات والحفــلات لا تنقطع يوما واحــدا فى هذين الناديين ..

وقد اتيح لنا ان نشهد احدى هذه الحفلات فى احدى ليالى اغسطس الحارة ..

وبدأ الاحتفال بمشــهد صغير من ثمانية عشر شــخصا فى ملابس متماثلة ، عبارة عن بنطلونات زرقاء انيقة وسترات بيضــاء ، هو الزى الرسمى لفرقة كيما للموسيقى والرقص والغناء ! .. ووقف أمامهم صــديق جديد لنا هو مدير مركز التدريب .. وغنى .. ثم وقفت سيدة أنيقة جعلت تتحدث بصــورة متصلة اكثر من خمس دقائق وصــوتها يتردد فى حماس غريب .. وعرفنا أخيرا انها كانت تسرد قصة قصيرة .. قصة حب ..

ثم صعد شاب مثل أحمد غانم عندنا ، يغني ثم يتوقف ليتحدث، ويلقى بالنكت ، وبعده غنت احدى السيدات اغنية التسوق الى موسكو . ثم وقفت سيدة أخرى تتحدث بحماسة ، تدافع عن النساء فى مواجهة عالم الرجال وتبرر تصرفات النساء ، وتقول ان النساء اصبحن رائدات فضاء وصحفيات . وصفقت النساء فى الصالة بحماسة ..

ووقف شاب نحيف يشبه الى حد كبير عبد الحليم حافظ ·· دون سمرة·· واذا به يغني: « يا زهرة في خيالى » ·· وغناها أحسن من فريد الاطرش ·· وبعده مباشرة دبت الحرارة فى الموسيقى وأصبحت الطبلة سيدة الموقف ، ودوى التصفيق فى القاعة عندما ظهرت مرجريتا ·· الشقراء الجميلة التى تغنى بجسمها كله ·· وسرعان ما انهمرت أغانى الفرانكو آراب : فطوما ·· ماما قالت لى كسكليا ·· ثم بامبو سودانى·!

كل هؤلاء الفنانين يعملون فى السد عمالا ومهندسين وفنيين · اغلبهم يغنى هنا لأول مرة فى حياته ·· ثم يواصل الهواية الجديدة فى بلاده ·· فمرجريتا مثلا كتبت قصيدة عن السد وغنتها فى موسكو ··

والمفاجأة الحقيقية ان هذه الفرقة تضم اثنين من المصريين هما بدوى شاذلى ، والسيد البديوى ·· الاول سائق جرار على جسم السد · والثانى كاتب حسابات فى الجاراج ·

***

وقبل أن نذهب الى أسوان كانت الصورة التى نحملها فى رءوسنا عن الروس انهم متجهمون عابسون جامدون ·· وكانت صورة المرأة الروسية فى رءوسنا هى الصورة المعهودة .. البناء الضخم المربع ..

وقد تلاشت الصورتان تماما منذ اللحظة التى وضعنا فيها اقدامنا فى اسوان ··

وفى البداية تصورنا ان عدد السيدات الروسيات قليل فى اسوان ·· بعدد السيدات البدينات اللاتى نلقاهن فى الطريق ·· ثم عرفنا ان هناك ٨٠٠ امرأة روسية فى المدينة غالبيتهن الساحقة من الفتيات الرشيقات الانيقات ··

وقالت لنا لودا ، المترجمة الشقراء الجميلة · ان المرأة الروسية لا تختلف عن أى امرأة اخرى · فالنساء هن النساء فى أى مكان فى العالم ··

ولودا فتاة صغيرة لا تتجاوز الثانية والعشرين تخرجت من معهد اللغات الاجنبية فى موسكو وتتكلم الانجليزية كأبنائها .. وعقب تخرجها عرض عليها ان تعمل فى موســكو أو غانا أو الهند أو مصر . فاختارت مصر ..

وبعد عام من اقامتها فى اسوان تزوجت من مترجم آخر شاب كان معها فى نفس المعهد ولكنها لم تتعرف به الا هنا ..

وكان الفرح الذى أقيم لهما هو رابع فرح من نوعه تشهده اسوان فى سنتين ..

وليس معنى هذا ان كل الروسيات فى اسوان يعملن . فالواقع ان عـدد العاملات منهن ـ من سكرتيرات ومترجمات ومدرسات وطبيبات وممرضات ـ لا يتجاوز العشرين .. وربما كانت الـ ٧٨٠ روسية أخرى فى اسوان هن الروسيات الوحيدات فى العالم اللاتى لا يعملن .. وهن يقضين وقتهن مثل السيدات المصريات تماما : الشراء والعناية بالمنزل والاطفال والثرثرة .. وبعضهن يضيق بهذه الحياة فيقمن بدور بارز فى الحفلات المختلفة أو يتطوعن لأى عمل ـ مثل ماريونا سمينوفتش ذات الوجه التتارى الجميل التى تدير النادى الروسى فى صحارى ، وكانت فى بلادها كيمائية ..

وكنا نتحدث مرة مع رادتشنكو عن مهندس مصرى كان يشكو من ان زوجته تركته وعادت الى القاهرة ، فقال الخبير الروسى : ان ظروفنا فى هذه النقطة أحسن من ظروفكم ، فزوجاتنا لا يســتطعن العودة الى موسكو بسهولة بسبب المسافة .. !

***

وفى المستشفى الروسى التقينا بست طبيبات روسيات..

والمستشفى يبهرك أول ما تدخله بالنظافة الشديدة والذوق البالغ فى كل مكان .. الجدران ناصعة البياض .. والبلاط شديد اللمعان .. وكل شىء يلمع ..

وأولى الطبيبات واحدة متخصصة فى الامراض الجلدية وبطلة فى التنس وتنس الطاولة .. !

والثانية اخصائية امراض نساء ، قضت سنتين فى مصر ، وتعد مجلات الحائط فى المســتشفى وتكتب الارشــادات الطبية المعلقة على جدرانه ..

والثالثة ، مدام اوجانسيان ، زوجة أحد كبار المصممين فى السد وهي ارمنية وطبيبة أطفال وتغنى وتعزف على البيانو ۰۰!

ثم طبيبة أسنان واخرى للانف والحنجرة ۰ سباحة واخيرة للعيون، رسامة !

وازواجهن جميعا يعملون في السد ۰۰

وعندما التقينا بهن كن فى اجتماع عقدته هيئة المستشفى استعدادا للكشف على جميع الاطفال الروس بمناسبة بدء العام الدراسى ۰

وهيئة المستشفى تجرى خلال العام ۲۷ ألف كشف، فالكشف الطبى يجرى على الروسى ثلاث مرات فى السنة ۰۰ والامراض المألوفة التى يصابون بها هى الانفلونزا والتهاب الحنجرة والامراض الجلدية والارتباك المعوى عند الاطفال ۰۰ وكلها مرتبطة بتغيير الجو ۰ أما الامراض الخطيرة فنادرة بينهم ۰ واذا مرض أحدهم مرضا معديا نقلوه فورا الى روسيا ۰ وهذا لم يحدث مرة واحدة حتى الآن ۰۰

والطبيبات يذهبن الى الكوافير مرة كل شهر ، ويعملن ست ساعات فى اليوم ، ويقمن باعداد الطعام فى منازلهن أو يتناولنه فى النادى ، ويخترن موديلات ملابسهن من المجلات الروسية أو المصرية .. !

***

والى جانب ال ۱۷۰۰ رجل وسيدة هناك ألف طفل روسى فى اسوان ۰۰ منهم ۳۰۰ يذهبون الى المدارس ۰۰

وللروس ثلاث مدارس صغيرة أنيقة .. تضم كل واحدة مائة طفل تتراوح أعمارهم بين السادسة والحادية عشرة ، فهم بعد ذلك يواصلون دراستهم فى روسيا . وفى مدرسة صحارى قابلنا ناظرتها وكانت قد قدمت لتوها من الاتحاد السوفييتى .. وكنا فى أغسطس وكانت سعيدة تماما بشمسنا القوية .. ولم نتصور مدى عاطفة الروس نحو الشمس حتى رأينا لوحة كبيرة مصورة فى مدخل المدرسة تحمل كلمات اغنية أسمها « فلتسطع الشمس دائما » .

وصحبتنا كلارا باخيتان ، وهذا هو اسمها ، الى أحد الفصول ۰۰ كان الفصل يضم ثلاثين طفلا علق كل منهم على صدره ميدالية صغيرة تحمل صورة لينين عندما كان طفلا ۰۰

وقالت لنا كلارا : ان بعض الاطفال يشعرون بنوع من خيبة الأمل، فقبل مجيئهم كانوا يتصورون أنهم سيقابلون فى مصر أبطال القصص التى قرءوها فى بلادهم (لم نعرف ما هى وربما كانت الف ليلة وليلة) والجمال والتماسيح ، ولكنهم لم يروا شيئا من هذا كله ·· فيمـــا عدا الاهرامات ·

- ٣ -

كنا نجلس فى أحد المحلات المنتشرة على النيل نتناول طعامنا ، عندما لمحنا المترجم الشاب الذى اشترك فى مقابلاتنا مع الخبراء الروس، جالسا الى مائدة بمفرده ، يتطلع شاردا الى مقابر النبلاء النوبيين القدماء على الشاطىء المواجه ·

كان فكتور كاليجان شابا نحيلا وسيما فى الثلاثين اقرب فى مظهره وشكل ملابسه الى الفتية الامريكان الذين نراهم فى السينما ·· ولم نشأ أن نحدثه فقد شعرنا انه غارق فى تأملات خاصة وربما كان يحس بالحنين الى وطنه ، وهى عاطفة كنا نحن أيضا ـ بعد شهرين ونصف ـ قد بدأنا نشعر بها ··!

ومرت دقائق ·· وفجأة سمعنا صوتا بالقرب من مائدتنا يقول :

ـ عفوا ·· اين قلتم انكم تسكنون ؟

واذا هو المترجم الشاب بوجهه شديد الحمرة ··

ودعوناه ليشاركنا مائدتنا ·· ولم تمض دقائق حتى أصـــبحنا اصدقاء ··

وفيما بعد أسميناه مستر « فيرى جود » ··

فلم نكن نسأله عن رأيه فى شىء خاص ببلادنا الا وهز رأسه قائلا فيرى جود ··

عبد الوهاب وام كلثوم ويوسف ادريس فيرى جود ··

وليؤكد لنا انه جاد شرع يغنى مقطعا من انت عمرى ..

صدقى سليمان وابراهيم زكى ورجالهما فيرى جود ايضا ··

وكان سعيدا عندما قلناله : اننا نعجب بيوفتوشنكو .. وانه

« فيرى جود » ·· فالقى علينا بضعة أبيات من قصيدته الأخيرة ·· وهى عن عمال فى سيبريا لم يجدوا ما يشربونه من الفودكا أو البراندى بعد يوم عمل شاق فشربوا الكولونيا .

***

والحق اننا لم نقابل فى اسوان روسيا واحدا لم يكن شديد الحماس لبلادنا وعمالنا ·· والتغيرات الجديدة التى طرأت على حياتنا ·

ان الكسندروف رأى اسوان لأول مرة فى عام ٥٧ ، وكان قد جاء عضوا فى بعثة صغيرة من خبراء محطة ستالينجراد الكهربائية ·· وكان أول مالاحظه وقتها هو كثرة عدد العاطلين فى الطرقات ·· أما الآن فلم يعد هناك ـ كما قال لنا ـ شىء من هـذا ·· الجميع يعملون والمدينة اصبحت اكثر نظافة وتنظيما ··

وعلى مبعدة ألف كيلو من القاهرة كان كبير الخبراء الروس يتحدث فى تقدير وحماس عن الاتجاه الى تكوين تنظيم سـياسى فى الاتحـاد الاشتراكى ليكون اتحادا للناس الاكثر تقدما ·

وكان الحديث مع رادتشنكو فرصة لا تعوض ·· فهو قد قضى فى بلادنا فترة طويلة . كما انه كان قادرا ـ فى لحظة مغادرته للبلاد ـ على أن يركز ملاحظاته ··

قال : ان اروع شىء هنا هو ادراك القيادة العـربية لمغناطيسـية العمل · وارتفاع وعيها السياسى ·· وهو شىء يستحق صدقى سليمان وابراهيم زكى وغيرهما الشكر والتقدير عليه ·· فعندما يعمل الجميع كتفا الى كتف وبفهم متبادل لا تعود هناك أيةصعوبات ·

وقال رادتشنكو انه أعجب أيضا بالمصريين الذين لا يشربون الخمر ، مما ساعد على تدعيم النظام فى العمل ·· بينما لم تعجبه « الجلابية » ·· وكان سعيدا بالحملة التى كانت الحكومة تشنها ضدها ·· ولم يعجبه ايضا بقاء المرأة فى البيت ··

والمفاجأة ان رادتشنكو معجب أيضا ـ بل عاشق ـ لرقص سهير زكى ·· !

وعندما وجدنا نبتسم سارع يقول : ان رقصها فن حقيقى وليس فيه جنس ·· أما رقص فرقة رضا فانا لا أحبه لانه مغرق فى الشكلية··

وفى رأى ماليشيف ان الشعب المصرى شغال وذكى.. وهو معجب « بالزعماء المصريين الذين يتصفون بالنشاط ويعملون على تطوير حياه الشعب » .

وجميع الخبراء والعمال الروس يثنون على العامل المصرى الذى يستوعب الخبرة بسرعة غير عادية ..

وقال لاريونوف يورى سيمينوفتش ، المشرف على أجهزة التركيب فى جسم السد ، ان المصرى « ينكت ويتشاجر وهو يضحك » ..

وكان هناك اجماع حماسى على الافلام المصرية ..

والشيء الذى كان محرجا فى الواقع ان نجد كل من قابلناه من الروس مستمتعا بالافلام المصرية .. يعرف اسماء نجومها جيدا ..

ومن الطبيعى ان الروس جميعا لا يحبون طقسنا ..

ولكننا وجدنا واحدا منهم أصبح عاشقا لهذا الجو المرعب .. رجل قصير ملىء ، نسخة طبق الاصل من الرسام المصرى المعروف صاروخان . قابلناه فى أحد مكاتب التصميمات بالهيئة . وعرفنا أنه قادم جديد .. وكان الرجل سعيدا بالحديث معنا وسرعان ما اخرج لنا صورة كبيرة من درج مكتبه لسد روسى اشترك فى تصميمه .. !

وكان الرجل واسمه مايفسكى قادما من جورجيا .. وعندما لاحظنا ان عينيه حمراوان قليلا .. وقلنا لعل السبب هو الجو صاح : كلا .. جو اسوان اروع من جورجيا بمراحل .. فالحرارة هناك أشد والرطوبة هنا لا أثر لها ..

***

هل حقق الروس فائدة ما من اقامتهم فى اسوان وعملهم فى السد ؟

لقد وجهنا هذا السؤال لكل من قابلناه منهم . وكنا نستبعد من المناقشة الاجابة التقليدية التى تقول بان زيارة أى بلد جديد لابد ان تكسبك شيئا ..

كنا نريد شيئا محددا ..

وقد اعطانا رادتشنكو هذا الشيء المحدد ..

قال نائب رئيس الخبراء السوفييت :

« لاشك انى استفدت كمهندس • فهنا خبرة غنية جديدة • تكنيك جديد وتركيبات جديدة ووسائل جديدة •• كما انى اسـتفدت أيضا كماركسى •• لقد اتسعت نظرتنا للأحداث الجارية •• وشهدنا عملية بناء الاشتراكية فى بلادكم •• »

- ٤ -

فجاة ، صدمنا سؤال غريب ••

كيف يتفاهم آلاف المصريين مع الألف روسى ؟

وفى البداية لم يكن هذا السؤال يشغلنا كثيرا •• ففى مقابلاتنا مع الخبراء الروس كان هناك دائما مترجم بين الانجليزية والروسية •• وفى احيان اخرى كنا نعثر على مصريين يتكلمون الروسـية ، تعلموها فى فترات تدريبهم فى الاتحاد السوفييتى ••

ولكن السؤال طرح نفسه علينا فجـأة فى ذات يوم حـار من اغسطس •• كنا نجلس فى أحد المكاتب الخشبية التى أقيمت على عجل وسط الموقع •• لتختفى سريعا بعد قليل من الوقت تاركة المكان لجبل أو هاوية •• ثم تظهر فى مكان آخر •• ككل شىء هنا فى السد ، لا يثبت على حال ابدا ••

وكان بالمكتب مهندس روسى ذو شـارب قصـير وشعر أحمر •• ومهندس مصرى آخر اسمه كمال السيد ••

وولج المكتب عدد من العمال المصريين والروس وقفوا امام المائدة التى يجلس اليها المهندس المصرى •• ودارت مناقشة سريعة حادة •

كنا نحرك عيوننا فى اعياء ونتمنى أن نغلقها ونفتحها لنجد أنفسنا فى غرفة مكيفة الهواء •• وجعلنا نتابع المناقشة فى ملل •• وادركنا ان هناك خلافا حول طريقة نقل احدى الآلات .. ولكننا لم نفهم شيئا آخر •• فقد كان الحديث يدور بسرعة وسرعان ما انتهى وخرج العمال المصريين والروس •• وتبعناهم بعد قليل • ونحن نفكر فى دش الماء المغلى الذى ينتظرنا فى مساكننا .. وعندما سقطت اشـعة الشمس الملتهبة على رءوسنا وقفنا جميعا ونحن نفكر فى شىء واحد •

حاولنا ان نتذكر الحديث الذى كان يدور امامنا •• وبأى لغة كان يجرى ؟

بالتأكيد لم نكن هناك كلمة انجليزية واحدة ..

ولم يكن الحديث يدور بالعربية .

ولا بالروسية .

رغم اننا سمعنا كلمات عربية وروسية .

وبدأنا نفكر .. كيف يتفاهم هؤلاء .. كيف يتفاهم يوميا ١٧٠٠ روسى مع عشرين ألف مصرى اغلبيتهم الساحقة لا يعرفون غير لغة واحدة هى لغتهم القومية ؟

وبدأنا نبحث الأمر ..

اكتشفنا أن التفاهم في المكاتب ــ وهو مالاحظناه من قبل ــ يتم فى سهولة بين المصريين والروس . فالمصريون هنا من فئة المهندسين الذين يعرفون الانجليزية . أما الروس فيستعينون بعشرين مترجما روسيا يحققون التفاهم بين الجانبين خلال الانجليزية . هذا الى جانب بعض المهندسين المصريين الذين يعرفون الروسية وان كان عددهم ضئيلا جدا ..

وتبينا أن مشكلة اللغة سببت متاعب كثيرة فى البداية .. فقد احضر الروس معهم مترجمين بين الروسية والعربية . ولكن احدا من المصريين لم يفهم عربيتهم المستمدة من المعاجم القديمة فضلا عن انهم لم يكونوا يعرفون المصطلحات التكنيكية التى لا زالت عندنا بالانجليزية مما ادى بهم الى استبدال العربية بالانجليزية فى التفاهم ..

أما العمال فكان الوضع مختلفا بينهم . فهم لا يعرفون بالطبع أى لغة وسيطة . وكان التفاهم يتم بينهم بالاشارات ..

هذا هو ماقيل لنا .. ولكننا لم نجد بعد اجابة على سؤالنا فلم يكن العمال الذين رأيناهم فى الكشك الخشبى يستخدمون الاشارات فى حديثهم .. لقد كانوا « يتكلمون » .

الى ان وجدنا الاجابة على سؤالنا فى مكان اسمه مصنع الحقن ..

ومصنع الحقن هو أهم مكان فى السد الآن . نقصد عندما كنا هناك ، فمن يعرف ما هو أهم مكان اليوم ـ اذ تعتمد عليه اخطر مرحلة فى السد وهى النواة الصماء . فالى اعماق بعيدة يجرى الآن حقن التربة باربع مواد ، اثنتين يؤتى بهما من اسوان هما الطفل والرمل الناعم

الاثنين الأخريين يؤتى بهما من روسيا وهما البنتونايت واليومنيت ٠٠ وفى الاعماق البعيدة بقاع النهر تتفاعل المواد الاربعة لتكون الحاجز المنيع الذى سيصمد في وجه مياه النيل مئات الاعوام ٠٠!

وفى معمل صغير ملحق بالمصنع فوجئنا بسيدة روسية أمام الانابيب ولعلها هى الفنية الروسية الوحيدة التى تعمل بالموقع ، وأردنا أن نصورها فرفضت بشدة ٠٠ وعبثا حاولنا التفاهم معها ٠ فنحن لا نعرف كلمة واحدة من الروسية وهى لا تعرف غيرها ٠ وهب أحد مواطنينا لمساعدتنا فقال لها وهو يحرك يديه مشيرا الينا « رابوتى جازيتا صورة سواسوا » ٠٠

وسمحت لنا السيدة الروسية بان نلتقط صورتها ٠ وعندما غادرنا المعمل كان هناك جمع من العمال الروس والمصريين أمام احدى الآلات ٠ ولمحنا بينهم واحدا ضخم الجثة يغرى بالتصوير ٠ وتقدمنا منه وقلنا له كلمة السر التى تعلمناها منذ دقائق « رابوتى جازيتا صورة سوا سوا » ٠

وتأملنا الرجل برهة ثم انفجرت اسارير وجهه وقال فى هدوء : موجنا صورة سوا سوا ٠٠ وأدركنا أنه قد وافق ٠٠ فالتقطنا له صورة ٠

ومنذ تلك اللحظة اصبحت آذاننا على الكلمات التى يتبادلها المصريون والروس ٠٠ وبدأنا ندون هذه الكلمات فى مفكراتنا ٠٠ لقد أصبحنا نشبه البروفسور هيجنز عالم اللغويات المشهور في مسرحية برنارد شو المعروفة ٠٠ !

كانت هناك تلك الكلمة التى تتكرر فى كل جملة مهما كان معنى الجملة او الهدف منها : « سوا سوا » ٠٠ وتصاحبها عادة اشارة من اليدين يضم فيهما اصبعين الى بعضهما ضما شديدا ٠

والمؤكد اننا لم نكن امام حالة يستخدم فيها الطرفان بضع كلمات من اللغتين ٠ وانما كان هناك شيء جديد تماما ٠٠

خذ مثلا عبارة « مدام كسورة » ٠٠ ومعناها ان السيدة مريضة ٠٠!

ان خمس سنوات من العمل المشترك قد مزجت بين لغتين غريبتين لم يلتقيا من قبل لتوجد منهما لغة او لهجة جديدة فاتنة ٠

والطريف انه فى حالات كثيرة يقدم احد الطرفين بعض التنازلات فتؤخذ الكلمة كما هى من احدى اللغتين وتضم الى اللغة الجديدة ، فبائع

اللبن الذى يطوف بالمنشآت السكنية على حماره ينادى عليه بالكلمة الروسية « مولاكو » ويفعل بائع الخبز نفس الشىء فيصيح « خليب » بينما يستخدم الجميع ، مصريون وروس ، كلمة « صديق » بصورتها العربية . وفى مباريات كرة القدم يهتف المتفرجون المصريون بالروسية « دفاى .. دفاى » ويستخدم الروس كلمة نوبية هى « اسومو » .

وهناك ايضا السيارة الروسية الضخمة التى تمتاز بحاجز امامى افقى عبارة عن اسطوانة حديدية كبيرة . وعندما جاءت لاول مرة ورآها عمالنا الصعايدة هللوا لها عندما اكتشفوا ان الاسطوانة الحديدية فى مقدمتها تبدو كالشارب تماما فى وجه الانسان . فاسموها « ابو سنب » وأصبح هذا هو اسمها الرسمى عند الروس ايضا .. !

***

فى اخر يوم لنا بالسد قمنا بجولة سريعة فى الموقع .. كانما لنتزود بنظرة اخيرة من المكان .

وأمام احدى آلات التخريم وجدنا عاملا روسيا يتابع عمود الآلة فى صعوده وهبوطه ، وحوله عدد من العمال المصريين شرعوا فى الانصراف عندما اشرفت الساعة على الثانية ، موعد انتهاء الوردية . وظل هو واقفا يدير الآلة وعيناه تتابعان حركاتها فى استغراق . وانتهزنا فرصة توقفت فيها الآلة لحظة لنسأله :

« موجنا سوا سوا كلام » ؟

فأجاب بالروسية : « باجلستا » ..

ولكننا لم نتقدم كثيرا بعد ذلك . كان قادما جديدا لم يتمرس بعد بلغة السد ..

ومع ذلك استطعنا ان نعرف ان اسمه ميخائيل ايفانوفتش وعمره ٣٠ سنة ، وانه من كورسك .. وحاولنا ان نفهم منه لماذا يستمر فى العمل بعد انتهاء الوردية .. وكل ما اخذناه هو هزة كتفيه وكلمات غامضة لم نفهمها ..

ووقفنا حائرين .. وهو يدير بصره فى وجوهنا المتربة .. ثم ابتسم فجأة ابتسامة عريضة وقال :

« مصرى روسى رابوتى سوا سوا .. »

اجابة كافية .. !

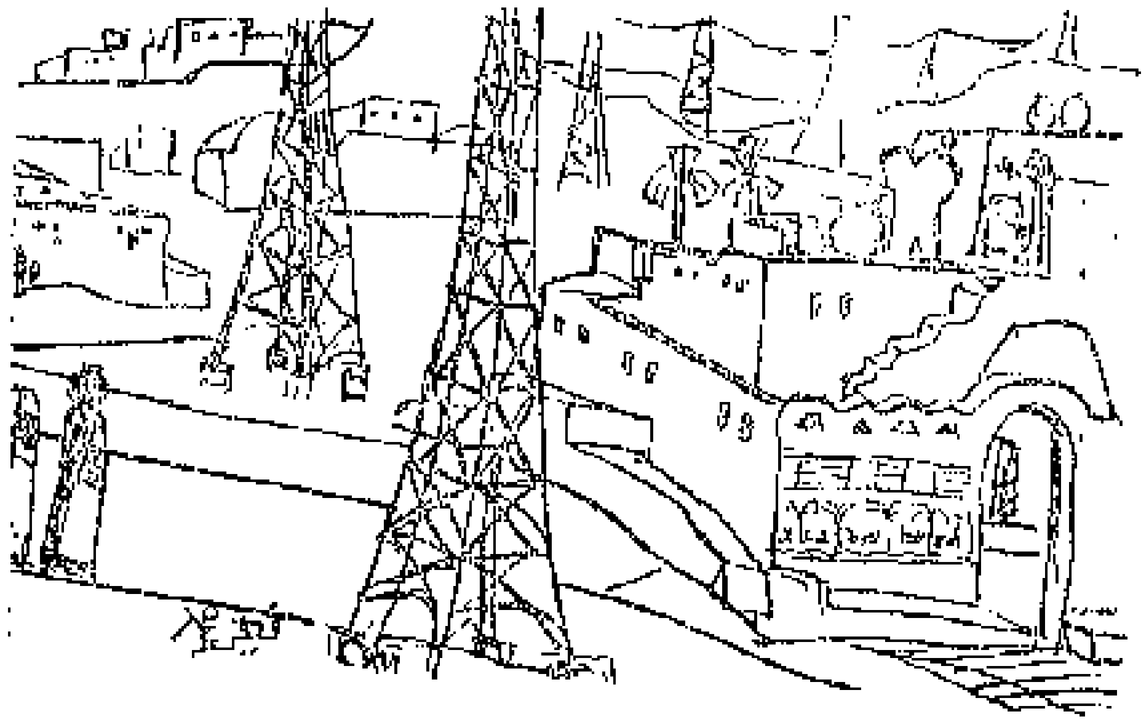

مصابیح ناصر

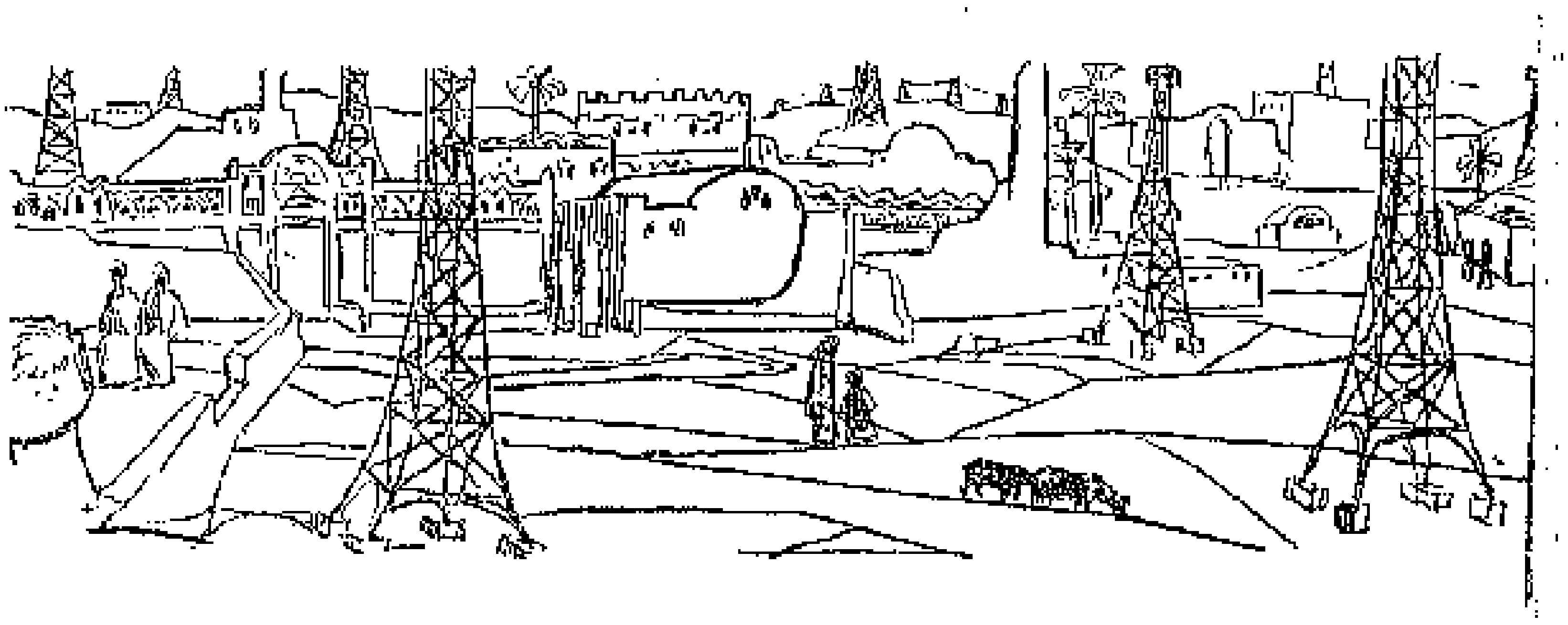

- ١ -

الذى يعمل ويبنى ويفحت الارض فى بلد مثل مصر تخلفت طويلا ، يعرف ويدرك انه يواجه عدوا قاسيا ، ليس هو التخلف ، وليس الفقر ، وانما الزمن ٠٠ ومن أسوان الى ادفو الى نجع حمادى يصبح العدو أحيانا الجبل ، ومرة الصحراء ، ومرة الحاجة الى الماء وأحيانا تصبح القضية هى النقل أو الموت ٠٠ عشرات الاعداء تواجهك فى رحلتك الى خطوط الكهرباء ٠٠

والذى قادنا الى هذه الرحلة كلمات سمعناها من الكسندروف فى آخر لقاء لنابه ٠

قال الرجل الذى لم تفلح علامات الارهاق البادية عليه ، فى محو ابتسامته الذهبية : « عندما قامت الثورة فى روسيا كان أهم شىء واجهته وحققته هو كهربة البلاد ٠٠ وعندما تسللت الكهرباء الى القرى النائية لأول مرة كان كل مصباح يضاء يسميه الناس بمصباح لينين ٠ وكان يضىء فى بيوت الكادحين ٠ وفى مصر سيمد السد العالى أطراف البلاد بالكهرباء ٠ وستضىء مصابيح ناصر بيوت العمال والفلاحين وتغير حياتهم كلها ٠٠ »

***

وخط النور يبدأ من محطة الكهرباء الاساسية لأنفاق السد العالى٠ ومنها لا بد وأن تزرع صحراء مصر وأراضيها بكميات من خطوط الكهرباء واعمدتها وابراجها فى مساحة قدرها مصر كلها وطولها من أسوان الى القاهرة ٩٠٠ كيلومتر لخطوط حمولتها ٥٠٠ فولت ، و ٣٠٠٠ كيلومتر لخطوط حمولتها ١٣٢ فولت ٠٠ الى جانب ١٢ محطة محولات تتسلم كل محطة كهرباء السد وتبعثرها على أربعة آلاف قرية مصرية لأول مرة فى التاريخ ٠

ان خط أسوان ــ القاهرة الهائل لا توجد خطوط مماثلة له فى أى

مكان فى العالم سوى فى الاتحاد السوفييتى ٠٠ وعندما ينتهى مده فى سنة ١٩٧٠ سينقل كهرباء تزيد بكثير عن انتاج مصر كله من الكهرباء فى عام ١٩٦٣ ٠

وابتداء من أسوان تسير أعمدة النور غرب النيـــل حتى تصل الى محطة محولات نجع حمادى فى قرية « هو » ثم تستمر شمالا حتى محطة محولات أخرى فى ســوهاج ٠ وفى الطريق الذى ظهرت فيه السيارات لأول مرة عام ١٩٦٢ ، تمر بقرى قديمة بها حمامات رومانية تحت قاع النيـــل وممرات فرعونية تحت الارض تفضى الى حمامات أخرى ٠ والى جوارها تقوم مواقع العمل المتحركة ٠ بمهندسين وعمال بعمليات تعرفها أرض مصر وصحرائها المهجورة لأول مرة ٠

وربما كانت عملية بناء قواعد الابراج .. التى تتحرك لها قوافل العمال والمهندسين من أسوان الى القاهرة ٠٠ هى أصعب وأعقد العمليات التى شهدها السد ٠ وتبدأ المتاكل منذ لحظة حفر «الجوره» التى سيقوم عليها البرج ٠ فطبيعة التربة تختلف من مكان الى آخر٠ هى أحيانا صلبة، وأحيانا أخرى طينية متماسكة وأحيانا ثالثة هشة تنهـــار جوانبهـا على الفور ٠

ولك أن تتصور قافلة صغيرة من العمـــال والآلات ليس أمامها ولا خلفها غير الصحراء تقطع كل يوم فى وهج الشمس النارية خمسمائة متر ٠ وتغرس عرباتها فى الرمال ٠ فى أماكن لا تصـــلها مياه لعمل الخرسانة أو للشرب ٠

وعلى الطريق الى سوهاج سمعنا حكايات هؤلاء الرجال الذين كشفت المصاعب التى يواجهونها عن معادنهم الأصلية ٠٠ سمعنا عن الفرق التى كانت تعمل احدى عشرة ساعة متواصلة دون أن تتوقف لتناول الطعام ٠ وتواصل العمل بالليل ٠ فى ضوء كشافات السيارات ٠ وعندما تفرغ البطاريات يشـــعلون النار فى اغلفة الاسمنت ويواصلون العمـــل على ضوئها ٠

ولم نكن نتصور فى رحلتنا الى خطوط الكهرباء الممتدة من أسوان الى نجع حمادى وسوهاج أن نلتقى بفنان يعمل فى الخطوط ، متخرج من الفنـــون الجميلة ، مهنته بناء البيـــوت ويشغل كل عقله هدم القرى وبناؤها ٠

هذا المهندس المعمارى اسمه محمد عصام عباس ٣٥ سنة تخرج من

الفنون الجميلة منذ عامين ، وأمضى عاما في لجنة البحوث العلمية لدراسة اشكال القرية في اللجنة العليا لبحوث القرية . وكان رئيسه المرحوم الدكتور أنور المفتي ، ويقول عصام ان هذه اللجنة كانت أول لجنة في القطر تواجه المشكلة مواجهة سليمة .. كان بها ٢١ شخصا من كل مهنة تمت للفلاح بصلة .. وبعد حل اللجنة سعيت للعمل في السد العالي ، كنت أحلم دائما بالعمل في مشروع كبير .. وعندما ذهبت الى خطوط الكهرباء كنت أدرس كل قرية نمر عليها وأصورها وأراجع عليها أفكاري، التي ساعود اليها بعد السد العالي . عندي ٣٠٠ صورة لقرى الصعيد التي مررت بها .

لقد قدم عصام في القاهرة دراسة للماجستير في هدم القرى وبنائها .. والدراسة عن قرية الحرانية في الجيزة . درس تعدادها من مائة سنة وتوقعات السكان في المستقبل لتحديد الخدمات التي توفر للقرية في تخطيطها الجديد .. وفي القاهرة أيضا ترك عصام قصة حب عنيفة كتب فصلها الختامي قبل لقائنا به بأيام .. فقد استقالت فتاته من عملها في القاهرة ، ولحقت به في خطوط الكهرباء ..

ويقول عصام : لم أشهد في حياتي أروع من مسيرة موكب الكهرباء .. كنا متوقعين مشاكل مع الفلاحين ومع الصعايدة لان الخطوط تخترق أراضيهم في أحيان كثيرة . ولكننا فوجئنا بتعاون كامل ورائع . كنا ننقل معسكراتنا كل عشرة أيام تقريبا أو شهر بجوار قرية ونبدأ في بناء القواعد الخرسانية التي ستقام عليها الخطوط ، تصوروا ان الفلاحين كانوا بيقلعوا الزرع بتاعهم عشان يساعدونا . وكانوا دايما يسألونا في كل قرية سؤال واحد محدد : الكهربا حتيجي امتى ؟ أنا سئلت هذا السؤال مليون مرة . كان معايا مرة اثنين مهندسين في عربية ، وانغرزنا في الرمل بالقرب من قرية بيت داود مركز جرجا والعربية غرق كل العجل بتاعها ، واحد فلاح شافنا راح مبلغ البلد . البلد كلها جت من الغيطان ومن البيوت ورفعوا العربية من الرملة وأنقذونا ..

« في قرية الكرنك واجهنا مشكلة المكان الذي نضع فيه معسكرنا . عمدة البلد كان عنده حتة أرض مش مزروعة ، اعطانا قطعة أرض وأعطانا حجرة مربعة مبنية للمخزن . ومرة مات سواق من عندنا في حادث أثناء نقل الاسمنت عندما انقلبت العربة . اتلخبطنا معرفناش نعمل ايه ؟ فوجئنا بأن القرية اللي جنبنا احضروا الكراسي والدكك والحصير والمقرئ وجم أهاليها وعملوا معزى في الجبل وكان شعور رائع من ناحيتهم .

« لا أستطيع أن أحكي لكم عن الترابط غير العادي بين عمليتنا ، بناء أبراج الخطوط ، وبين علاقاتنا بالقرى بمئات القرى ومئات الفلاحين الذين احتكوا بنا وعملنا بجوارهم . لن أنتهي أبدا ولن تصدقوني . كان المشروع وكأنه بتاعهم ينمو في حضنهم الاكل من عندهم والرجالة من عندهم من قلب القرى والعيش والميه .. بدون هذه القرى والكفور والنجوع الصغيرة لم نكن نستطيع أن نحقق شيئا .. لقد شعروا بلا كلمة منا ان السد ده بتاعهم . وان الكهربا احنا مجرد عمال فيها وحنوصلها لهم . كان وعيهم بالسد فوق التصور ..

ولن أنسى أبدا رحلة زحف الخطوط في منحنيات الجبل وفي قلب الصحراء وفي حضن الفلاحين .. لن أنسى أبدا وساعود حتما بعد السد العالي لأبني قرى وأهدم القديم .. أبني قرى جديدة مضيئة بالكهرباء جديرة فعلا بهؤلاء الفلاحين » .

***

ان مصابيح ناصر تسطع بالنور من الآن .. بل منذ اليوم الاول لحياة السد ..

فما ان تغرب الشمس حتى تضيء آلاف المصابيح في منطقة السد . تحول ليلها الى نهار ..

والواقع انه من الصعب أن تميز الليل من النهار في السد ..

سوى ان السد بالليل يتحول الى عمل شاعري جميل بلا حرارة النهار القاسية ..

وعندما تقترب من الموقع في أي ساعة من ساعات الليل .. يخيل اليك انك وقعت فجأة على مدينة تحتفل بانتصارها .. فأقام أهلها فرحا هائلا ..

وقد قضينا في هذا الفرح ليلة كاملة .. هي أمتع ليلة قضيناها في حياتنا .

- ٢ -

الساعة ١١ . التقينا بسائق عربة كراز ، رحب بأن يستضيفنا في عربته طول الليل لنرى الموقع . السائق اسمه خزاعي وهو يعمل في نقل الطمي من حجر الطمي الى النواة ، في قلب جسم السد . كابينة

العربة ضيقة نوعا ، لا يوجد مقعد بجوار خزاعى . وليس هنـاك غير صندوق حديدى صغير انحشرنا فوقه ٠

الساعة ١١٫٣٠ ٠ وصلنا الى قلب الموقـع ٠٠ الى جسم السد ٠ عبرناه وانطلقنا فى اتجاه مبنى الهيئة ، الانوار شموع رفيعة على أرض مصر كلها ، تمنينا أن تصبح مصر كلها سدا مضيئا ٠ انحرفت العربة الى اليسار ثم الى اليمين ، الطريق ١٤ كيلو حتى محجر الطمى ، الطريق تحتله قافلة من العربات كنجدة حربية ذاهبة لفك الحصار عن كتيبة مقاتلة ٠ الطريق يئز ويزمجر ٠ أصوات كأصوات معركة ضارية تهد صمت الليل وتلغيه تماما ٠ الانوار تتلاحق على جانب الطريق ٠ بدأ الغبار يتكاثف أمامنا ٠ دخلنا على جيش من العربات الضخمة ٠ نزلنا محجر الطمى ، وهو من ثلاثة أدوار وفى كل دور تقف كراكة فوقهـا رجل ، كان هذا المحجر جبلا فأصبح هاوية لهـا جدران مرتفعة ٠ فى قلب الهاوية تقف كراكة تنهش الحائط بكباشتها ٠ سائق الكراكة المصرى يدوس على أشياء أمامه فتتحول الحجرة التى يقودها الى أى اتجاه يريده ، وهى ثابتة فى مكانها ، ويصوب ذراعها الذى ينتهى بالكباشة الى حائط المحجر ويأخذ منه ما يملأ الكباشة ، ويغلقها ، ويدوس على أزرار فتتحول الذراع الى المكان الذى يريده على سطح العربة ٠ يفتح الكباشة فتنهمر حمولتها التى تملأ عربة ٠

أمام منضدة جلس رجل يحصى العربات ٠ وبجواره ورشة لصيانة الكراكات واصلاحها ٠ لا يمكن ارسالها للورش في الموقع لانها ثقيلة جدا وبطيئة جدا فى السير ٠ قد تصل الى الموقع فى يوم أو اثنين ٠

امتلأت عربتنا ٠ حرك سائق الكراكة ذراع الكباشة ووضعها فى حائط الجبل لتفرضه ٠ وانطلقت العربة ٠ وزحفت مكاننا عربة أخرى ٠

خرجنا من المحجر ٠ وعدنا فى نفس الطريق ٠ لم نتبادل مع خزاعى سوى كلمات قليلة ٠ ضجة العربة والمجهود الذى يبذله خزاعى فى قيادتها تجعل الحديث مستحيلا ٠ بين الحين والآخر يقـول خزاعى : ميت مسا عليكم ٠ وصلنا بالقرب من جسم السد ٠ عدد من العربات يسد الطريق لأن احدى العربات غرزت فى الارض المرشوشة بالماء ، فتحنا باب العربة ونزلنا ٠ القمر مضىء ولكن نور السد أقوى ٠ انفتح الطريق بعد قليل واستأنفنا السير ٠ دخلنا على جسم السد وممرات التفتيش ٠ استدارت العربة ووقفت وأشار اليها الملاحظ فداس السـائق بقدمه على احدى الدواسات وقبض بيديه على عدد من القضبان داخـل العربة وجذبها ٠

فارتفع صندوق العربة الضخم الى أعلى وأخذ وضعا رأسيا وانهمرت حمولته . وباشارة أخرى من الملاحظ بدأت العربة تتحرك الى الامام وصندوقها ينزل رويدا رويدا حتى يلتصق من جديد بالعربة .

الساعة الواحدة . انهينا النقلة الاولى . أمامنا لافتة كبيرة أضاءتها مصابيح الليل : السد العالى طريق الرخاء .. منزل . ثم مطلع تحشد له العربة كل قوتها لتتقدم ، صوتها وأزيرها مثل الطائرة وهزاتها لا ترحم . بعد عدد من المطالع والمنازل وجدنا أنفسنا أمام مكان كالمقهى . مائدة من الخشب وعدة أزيار وراديو ترانزستور . ورائحة الشاى الجذابة تأتى من الداخل جلسنا نستريح . رفض خزاعى ان يجلس معنا . قال اعمل نقلة الى ان تستريحوا .

الساعة ١٥ر٢ . اتممنا نقلتين من محجر الطمى ، وتركنا العربة الى جسم السد . البلدوزرات والهراسات تجرى على الرمال والطمى تدك الارض . ممرات التفتيش بدأت تختفى ويرتفع الطمى بجوارها . سائق الهراس شاب صغير اسمه فهمى عبد الله دكرورى . على الهراس كلمات بالطلاء الابيض : عاش عبد الناصر . عبد الناصر هنا معبود حقيقى للبسطاء . والجماهير التى لاتعرف الفلسفة . التى تقيس الناس والزعامة بمدى جسارتها واخلاصها . هنا اكتشف الناس عبد الناصر ببساطة ، تعتبره بطلها وحبيبها . وعندما تتحدث عنه تتحدث عن أخ وانسان تهفو الى أن تقابله لسبب واحد . كى تنقل اليه خواطرها وحديثها القلبى الخاص . وفى العادة ترى الجماهير فى قائدها شيئا أعلى .. أقل درجة من الله . ولكنها هنا تعتبر عبد الناصر صديقا . تحبه باخلاص . حقيقى وتتعصب له .

الاضواء والكشافات معلقة على سقف نفق التفتيش . بين النفق والرمال التى تجلس عليها عشرون مترا تقريبا . فى نهاية النفق من ناحية محطة الكهرباء ومن بداية جسم السد من ناحية الشرق عدد من الصعايدة يمهدون الارض بالفئوس ويرشون على الطمى المياه . الجميع يقولون ان العمل بالليل رائع .

كميات الطمى تلقى فى النواة . يمر عليها جرار عادى بدون هراس حوالى ٢٠٠ مرة فى ساعة واحدة . ثم يسير فوقها جرار يسحب هراسا وزنه ١٠ طن يمر على نفس القطعة ٣٠٠ أو ٤٠٠ مرة ثم هراس آخر وزنه ١٨ طنا ، ورابع وزنه ٢٥ طنا ، وخامس وزنه ٣٥ طنا ، كل هذا ليتحول الطمى الى أرض صلبة .

الساعة ٣ • نحن نسير فوق النواة • خلفنـا جزء من جسم السد تلقى به الصخور الضخمة • الصخور تحدث قصفا كالرعد وهي تنـحدر على جسم السد من أعلى وتصطدم بأحجار ضخمة مثلها ، ويتطاير منها الشرر • وقفنا لحظة بعد قلب جسم السد • تل هائل الارتفـاع من الاحجار يواجه أسوان البعيـدة هو القسم الخلفى من السد • استدرنا لنواجه تلا آخر يواجه السودان وبحيرة ناصر القادمة • بيننا وبينه يضع عشرات من الامتار • الارض تحتنا صفراء مبتلة • رمال خشنة أتى بها التجريف لتكون طبقة من طبقات السد • المواسير الضخمة ملقاة على كل جانب • عربة ماز مقلوبة على جانبها • وقد ارتفعت عجـلاتها فى الهواء وبدا بطنها كبطن سلحفاة خرافية عاجزة مقلوبة على ظهرها •

فى الجانب الآخر بلدوزر يتراجع الى الخلف ثم يندفع فى اتجاهها مصوبا سكينة من الصلب العريض الى صندوقها المائل المفتوح ، ينظفه من الاحجار الضخمة • ثم دفع نفسه فيها مرة أخرى فارتفعت بمقدار متر عن الارض وتركها • عاد الى الخلف وعادت العربة الى وضعها المقلوب • ومن جديد اندفع في اتجاهها بحساب محسوب ودس مقدمته فى جنبها ورفعها مترا • وأوقف البلدوزر سرعته وحبس أنفاسه • وزحف ببطء وهو يحمل جانبها على مقدمته • ثم زقها زقة فنية دقيقة وسمعنا رجة واعتدلت العربة على عجلاتها من جديد • شامخة متكبرة • وعاد البلدوزر الى الخلف • ونزل سائقه ••

جبابرة هؤلاء السـائقون .. سـائقو الكراكة ألتى تحطم الجبل ، والعربات التى تسير فى المطالع والمنـازل الرهيبة • ثـم البلدوزر الذى يسوى ويرتب الأمر • وآلاف الأضواء • العمل والصوت والحركة ودخان العربات والغبار • وأجسامنا تتخدر • ونريد أن نعود الى مكان قريب من طريق صديقنا خزاعى •

نرتكن على ماسورة قطرها متر على الأقل وتمتد بلا نهاية • احدى أعصاب السد التى تنقل الرمال بالتجريف • ويقترب منا سائق أسمر مترب. وجهه متغضن كأنه تجاوز المائة. أنه سـائق العربة التى انتشلها البلدوزر منذ لحظات لقد اجتاز منذ لحظات الطريق من الموت الى الحياة وتبدو على وجهه مشاق الرحلة الهائلة • قال ان اسمه عبد العزيز أحمد حسن من أسوان • كنت شايل حجـارة من محجر الطوب ، قطعة وزنها ٢٥ طنا ، وبعدين طالع المطلع ، ده عشان أرمى الحجر على السد الامامى ، العربية ماز كبيرة ـ وأنا طالع المطلع الحجر جه على الجنب اليمين • شعرت

بالعربية كلها شوف وزنها قد ايه بتميل هى كمان على اليمين ـ وأنا فى وسط المطلع حاولت • بصيت لقيت العربية بتتقلب ، أول حاجة شعرت بيها الخوف انى أقع تحتها • مسكت فى الدركسيون •• ايدى ماتت عليه عشان مقعش تحتها • جسمى اتصلب زى حتة الحـديد • وبقيت زى الكرسى ، كل ده مخدش ثوانى لغاية ما العربية اتقلبت على جنبها وبعدين على ضهرها • بصيت لقيت نفسى متشعلق جـوه العربية . الدركسيون شمال والعربية اتقلبت على جنبها اليمين • لما العربية نامت خالص حاولت أطلع برة العربية من الشـباك اطرطشت ميتنار من البطارية ، وخرجت وأنا ما زلت مرعوب ، اترميت على الحجر والرملة وأنا مش مصدق ان أنا نجيت •

وسكت السائق • وأشعلنا له سيجارة • بدا عليه أنه يسترجع نفس اللحظات التى مرت به منذ ساعة • بل أكثر من ذلك ، اكتشفنا أنه يسترجع لحظات مماثلة واجهها من قبل • مرة كنت بعدى من تحت كبشة الكراكة بالعربية ، قام زقت العربية زقة نومتهـا على جنبهـا ، وبرضه استموت على الدركسيون بتاعى حتى ما أتنطرش فى أى ناحية، معرفتش بيحصل ايه لحظتها • قوة خارقة بتساعدنى ومحصلش حاجة ، الكراكة بعدها بدقيقتين مدت ذراعها وسواق الكراكة نشن الكبشة بتاعته ورشقها تحت الصندوق ، وببساطة شديدة وبراعة هائلة اترفعت العربية • •

تركناه يستريح وتحولنا الى سـائق البلدوزر رقم ٩ الذى عدل العربية قال مشيرا الى البلدوزر : ده يقدر ينقذ أى حاجة • حمولته ٤٥ طنا.اسمى شحاته حواس ٣٠سنة من مركز قوص قنا حاصل على وسام الاستحقاق من الدرجة الخامسة من الريس (تقديرا لحميد صفاتكم وجليل خدماتكم منحناكم وسام الاستحقاق من الدرجة الخامسة) • وردية الليل أحسن من وردية النهار • العربية بتغلى فى الحر ولازم تتبرد بالميه كل نقلتين ، لكن طبعا وردية النهار كويسة عشان نوم الليل مايتعوضش •

الساعة ٤ • تركنا هذا الجانب من جسم السد وذهبنا الى بداية الطريق ، فى أقصى اليمين • مشى معنا شاب من أسوان جعل يحدثنا عن المدينة وعن فتاة يحبها • وعن ممرات التفتيش • اجتزنا الاضواء المركزة على جسم السد والمعلقة فوق أنفاق التفتيش • على جسم السد مجموعات من العمال تعمل فى أشياء متنوعة • عمال لحام ، وبالفئوس ، وملاحظين ، ومشرفين ؛ والعربات تدخل محملة وتخـرج فارغة ، والحركة لا تهدأ ، وصديقنا الأسمر لا يكف عن الحديث ، ونحن ننظر فى كل عربة نفتش.

عن خزاعى ، وصمم الشاب الأسمر أن نشرب شايا ، فذهبنا الى نهاية الطريق حيث يقوم كشك صغير يجلس أمامه شاب يغالب النوم ويقاومه . بجوار الكشك بلدوزر صغير جلس فى كابينته عامل روسى يقرأ كتابا فى ضوء مصباح معلق داخل الكابينة . البلدوزر يفعل شيئا لا تفهمه مع مواسير التجريف . والعامل الروسى يسلى وقته بالقراءة .

الساعة ٥ . بعد أن يئسنا من مقدم عربتنا ، ظهرت عربة أخرى بها زميل لسائقنا – قال ان خزاعى يبحث عنا . ركبنا معه الى محجر الطمى . بحثنا عن عربة خزاعى فلم نجدها .. نزلنا بعربتنا بجوار الكراكة ، وبدأت العربة تمتلىء . شعرنا بهـــا تندك ورسيت وثقلت ونزلت عدة سنتيمترات فى الارض . تذكرنا العربة المقلوبة . بحثنا عن أى شىء أمامنا فى العربة نمسك به ونستميت عليه حتى لا نضيع فلم نجـد . ونحن خائفون هائمون فى خواطرنا انطلقت العربة من تحت الكراكة وسارت وخرجنا من الممر وعندئذ وجدنا عربة صديقنا خزاعى فانتقلنا اليها .

الساعة ٥ر٤٥ . نور الشفق بدأ يظهر ضعيفا . مرة أخرى فى المحجر تحت الكراكة .

الساعة ٦ . بدأنا نعود . وما زال الظلام حيا . نغالب النوم بشدة، أضواء الكهرباء تندمج فى ضوء النهار الذى بدأ ينتشر . نصف دائرة من الأنوار الكهربائية تضىء جوانب السـد كله .. الشـفق أصبح أحمر ملتهبا . قليلا من ناحية الشرق .

الساعة ٦ر١٠ . انتهى طريق المحجر . دخلنا على الطريق المؤدى الى جسم السد . قال السائق فجأة : صباح الخير يا جماعة . دلوقت احنا داخلين على جسم السد فى آخر جولة لنا . عيون سائقنا حمراء كالدم .

الساعة ٦ر٢٠ . فوق النواة ننتظر العربة حتى تفرغ حمولتها . على قمة الطريق تقف العربـات الضخمة مصطفة خلف بعضهـا وبجوار بعضها بنظام وترتيب . منظرها بعد غزوة الليل كقاذفات القنابل الضخمة فى الافلام وقد عادت بعد أن ألقت حمولتها .

الســاعة ٧ . ودعنا خزاعى وتركناه . سرنا خطوتين ثم توقفنا . لأول مرة نرى السـد بصـورة مختلفة عن الأيام الســابقة . النيل من الجانبين، ومن الشمال والجنوب. وجسم السد واضح كله بكل نتوءاته. وتفصيلاته . رؤية مختلفة عن رؤانا الســابقة له ، عن كل يوم كنا نعبر

فيه السد من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . السبب أن المكان مضيء بضوء النهار دون شمس ، دون أشـــعتها الحارة التي تعمى العين . لأول مرة نرى كل شيء واضحا بالتفصيل الشديد . وقفنا لحظة ماخوذين ثم سرنا . مسافة كيلو ونصف على أقدامنا في بطء وتمهل . الطرق كلها مرشوشة استعدادا لشمس النهار . بدأت الشمس ترسل أشعتها الأولى أشعة خفيفة حانية قبل ان تتوحش . الناس في كل مكان . العربات . الشاى . باعة البليلة والسجائر والعربات المكتظة بالعمال .

الساعة ٨ . كنا ندق باب حجرتنا . ونحن نحس بنشوة هائلة تجمعت من كل تعب الليل ، ومحنته ! والنوم الذى كنا نتصور اننــا سنستسلم له على الفور طار وحــل محله نشـــاط اعادنا من جديد الى السد .

بطل السد

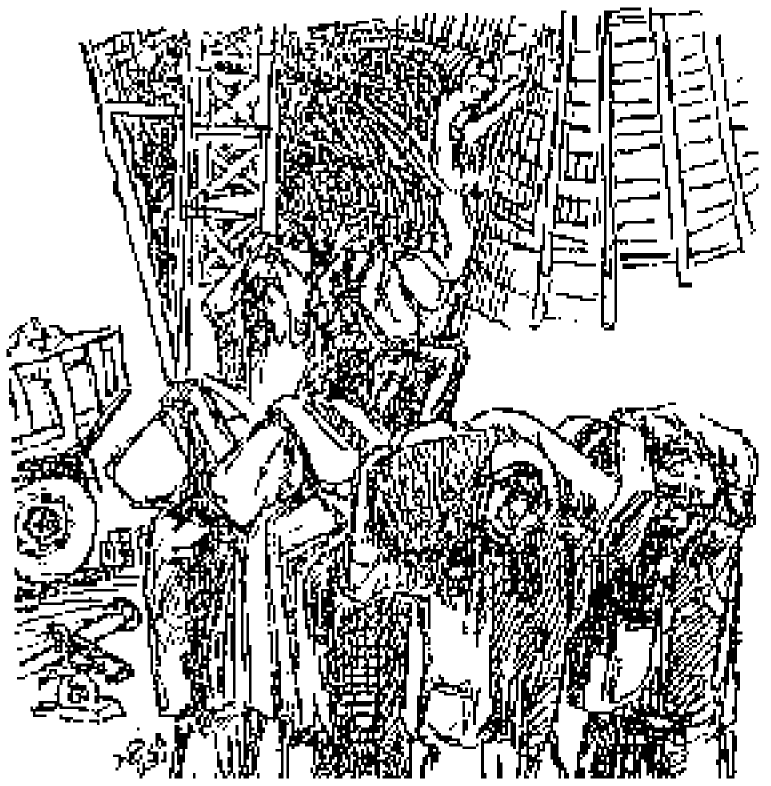

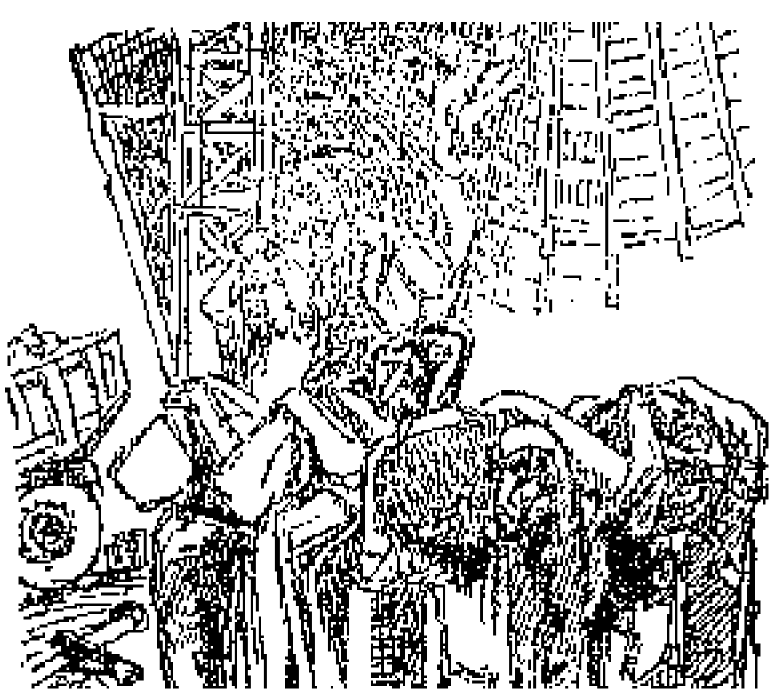

- ١ -

كنا ننقل اقدامنا باعياء فوق الرمال ٠٠وعلى مقربة كان يقف بعض الصعايدة ٠٠ يملأون المقاطف بالتراب ٠٠

كان منظرهم غريبا حقا .. فنادرا ما كنا نلتقى بهذا النوع من رجال السد ٠٠ الذين يقومون بأكثر الأعمال بدائية ٠٠ حمل الرمال فى المقاطف ٠٠

ولمح أحدهم كاميرا معنا فقال لنا مبتسما عاوز منظر .. أنا بطل السد ٠٠ !

وتذكرنا رادنشنكو ، نائب رئيس الخبراء السوفييت ، الذى قال لنا مرة فى ثقة : لولا ايدى الصعايدة ما تمت المرحلة الأولى ٠٠

انه أمر يبعث على الفخر حقا ٠٠ ولكن ذلك الصعيدى الذى قابلناه وهو يملأ المقاطف بالرمال ، لم يكن بطل السد ٠٠ !

ان بطل السد الحقيقى هو ذلك الذى صنع منه السد ، عاملا فنيا ماهرا ٠٠ لأن ارادة التغيير لديه ، التى حولته من عتال الى فني ، هى التى ستغير وجه بلدنا ٠٠ انه هو الذى سيبنى مصر الاشتراكية ٠٠ !

وهناك الآن المئات بل الآلاف من هؤلاء تخرجوا جميعا من مدرسة السد ٠٠

***

وفى السد مدرسة حقيقية ، مبان وفصول واساتذة وطلاب ٠٠

انه مركز التدريب ٠٠ مبنى واسع أبيض ينتصب على مشارف أسوان ، له سور طويل جدا يشبه المدارس الثانوية الحديثة ٠٠

وقصة هذا المركز تبدأ منذ عام ٦٣ ٠٠ قبل هذا كان التدريب يجرى فى الموقع نفسه ٠٠ وكانت هناك بعثات ترسل الى الاتحاد السوفييتى ٠٠ ولكن السد لم يكن يستطيع الاستغناء عن عماله ٠٠

ليتدربوا بعيدا عنه ٠٠ وعندما قاربت المرحلة الأولى الانتهـاء ، وارتفع مستوى العمل الفنى ، كان لا بد من اعداد تدريب منظم للآلاف ٠٠

وكانت طاقة المركز فى البداية ٧٠٠ طالب فى مختلف التخصصات ولكن المبانى الجديدة كانت تقام باستمرار داخل المركز ٠٠ كلما انتهوا من جناح وتصوروا أن المركز انتهى ٠ يبدأون جناحا آخر ٠٠

واسـتطاع المركز أن يخرج كثيرا من العمال المهرة الذين حلوا فى الحال مكان العمال الروس ٠

والسـد العالى هـو الذى يخطط لمركز التدريب دراساته وعدد طلبته .. تبعا لاحتياجات العمل.. مثلا فى العام الماضى بدأ العمل فى الحقن ٠٠ قبلها طلب السد من المركز أن يدرب ويخرج فرقا من الملاحظين والعمال المهرة لعملية الحقن التى بدأت فى سـبتمبر ٦٥ ٠ وبعد ذلك مباشرة طلب من المركز تدريب ١٠٩٠ طالبـا : ٨٦١ كهربائيا و ٣٠٥ من الميكانيكيين ، يحتاجهم العمل فى خطوط الكهرباء ومحطة الكهرباء ٠

وفى المركز ثلاثة مستويات من الدراسة ٠٠ الأول لخريجى المدارس الصناعية ومدة الدراسة ستة شـهور ، فى المركز ، ثم ٣ فى الموقع على الآلات والعربات الجديدة ٠٠ مع الحصول على مرتب أثناء الدراسـة عبارة عن ٤٠ قرشا و ٥٠ قرشا . يوميا . ثم ٧٠ عند التخرج ٠٠ ومن خلال الدراسـة يتم تخريج عمال مهرة وخـلال العمل يختار « الملاحظين » ٠٠ والملاحظ هو المشكلة الأسـاسـية فى السد وربما فى مصر كلها ٠٠ فهو الفنى التكنيكى القادر على التنفيذ وعلى قيادة عمل العمال ٠٠ وهذا هو الدور الحقيقى لمركز التدريب فى أسوان ٠٠

ان فصول المركز عبارة عن ورش كاملة ٠٠ وهى مقسمة الى مائة وخمس مهنات تبـدأ من اللحـام والخراطة والتجليخ الى التخـريم والميكانيكا والكهرباء .. ويشرف على الدراسة به مجموعة عجيبة من المصريين والروس ..

المستشار الفنى للمركز ضابط مهندس جاء من القوات المسـلحة راسا. وطابعه مدرس أكثر منه عسكرى، يحمل فى محفظته البوم صور لعائلته ٠٠ كل بناته طالبات فى كلية الهندسة ٠٠ اسمه المقدم الحسينى ٠

وللسوفييت ، وعددهم صغير جدا ، رئيس اسمه كونيوخوف فالنتين

هو كبير المعلمين يميل الى القصر ، نحيف ، ظريف ، أصلع ، عيناه صافيتان تشعان ذكاء وخفة دم ٠

أول مرة رأيناه كان في احدى الحفلات وكان يغنى ٠٠ ثم عزف على البيان ٠٠ واكتشفنا انه عاش في القاهرة عدة سنوات فى مدارس تدريب أخرى ٠ وكان جنديا خلال الحرب وعمره ١٨ سنة ودخل برلين مع الجيش السوفييتى وأخذ ستة ميداليات فى الحرب ٠٠

قال لنا فالنتين : اننا أكثر حماسا منكم ، لدور هذا المركز ، ٠٠ فبلادنا تحتاج الى خبراتها لقد أرسلوا لى من روسيا ثلاث رسائل ليسألونى متى أعود ومتى سينتهى عملى هنا ٠

***

ان العمال المصريين الآن يديرون مختلف الآلات والأجهزة والعربات ٠ لقد أصبح المئات منهم عمالا مهرة ٠٠

ولقد تحقق هذا كله فى ثلاث سنوات ٠٠

ففى ٥٩ عندما بدأت هيئة السد عملها ٠ لم تجد عمالا فنيين سوى عشرين عاملا بالتمام والكمال ٠٠ عبارة عن سائقين ٠٠ !

وقد روى البروفسور ايفان كومزين ، رئيس الخبراء السوفييت السابق ، فى كتابه عن السد ، القصة التالية التى حدثت فى الأيام الأولى للمشروع :

« فى أحد أيام العطلة الاسبوعية ، اتصل بى تليفونيا المهندس كودريا فاتسيف ، وأبلغنى بصوت غاضب ان أحد الأفراد حول احدى الكراكات الى أرجوحة خيل ٠٠ !

» وسألته : أى أرجوحة تعنى ؟

» فأوضح قائلا : ان أحد العمال العرب الذى أخذ دوره فى برنامج التدريب منذ بضعة أيام فقط ، قام بتشغيل احدى الكراكات ، وكانت النتيجة انالماكينة تدور الآن حول محورها بينما هو يصيح بأعلى صوته٠

» فاندفعت على الفور الى مكان الواقعة ، وهناك وجدت ان ماحدث هو أن نحاس مرسى ، وهو من العمال الذين لازالوا تحت التمرين ، قد أحضر أصدقاءه الى مكان الكراكة ٠٠ وأخذ يشرح لهم كل مايتعلق بالآلة بلهجة الخبير المتمكن من معلوماته ٠ ثم أخذت الأسئلة تنهال عليه ، ويبدو

ان أحد الأفراد قد أعرب عن شكه فيما اذا كان باستطاعة مرسى — فعلا — تشغيل هذه الآلة المعقدة . ودون أى تردد أدار العامل الشاب موتور الكراكة ..

وبدأ الحشد الصغير من الاصدقاء ومن لا عمل لهم ، بل والملاحظون أيضا في الهتاف والتصفيق ، وكان هذا حافزا للعامل الذى أخذ مكانه من الآلة وبدأ فى تشغيل ذراعها .. وفجأة بدأت الكراكة فى الدوران..

واجتاح المجموعة كلها شعور عارم بالفرح ، فأخذت تصيح وتصفر بينما لوح نحاس ، الذى علت وجهه امارات الجد ، بيده منتصرا ..

وبالتأكيد لم يتغير الشعور بالانتصار أو الجدية عند عمالنا الذين يقفون أمام الآلات الضخمة فى السد الآن ..

الذى تغير أنهم أصبحوا سادة هذه الآلات .. !

- ٢ -

بجوار مركز التدريب مباشرة منطقة تسمى السيل . وسبب هذا الاسم انها بقعة منخفضة وخلفها مباشرة الجبل .. وعندما كان المطر يأتى كل خمس سنوات أو سبع كان ينزل فى صورة سيل جارف ، ويتكوم المـــاء فى هذه البقعة وينمو النخيل ويربى الفقراء المعيز ويعيشون على الحشائش .. حتى جاء السد ..

ومازال السيل القديم بآثاره قائما .. كميات من النخيل والبيوت الصفيح وبيوت رصت أحجارها باليد .. ولكن بجوارها تقوم الآن أكثر من مائة عمارة ضخمة .. كل عمارة بها أكثر من عشرين شقة كل شقة مكتظة بالعمال والفنيين والملاحظين والمصريين والروس ..

وكنا قد ذهبنا الى العمارة رقـم ٤٥ لنلتقى ببعض الرجال الذين يصنع منهم مركز التدريب أبطالا للسد .. وكان باب شقتهم مفتوحا ، تتصاعد منه ضجة كالحريق .. وترددت أصوات ضاحكة وخشنة وشابة ومرحة تدعونا لتناول الشاى .

والشاى فى حر أسوان اغراء لا يمكن مقاومته ..

كان « كوز » الشاى يغلى فوق ســـخان صغير بالكهرباء بجـوار الباب .. وأمامه تجمع عدد من الشبان .. أغلبهم فى نصف ملابســهم وأحدهم كان عاريا تماما ما عدا شورت صغير ..

وفى أقل من ربع ثانية كنا وسط الحريق ·· الجميع يتحدثون فى نفس واحد ، وبفم واحد ، الحلاقة غالية جدا هنا ، واحنا مرتاحين من كل حاجة ما عدا الغسيل هو المؤلم وهو المشكلة ·· وأغلبهم كان فى حالة غسيل للملابس ونشرها ··

كانوا جميعا « ايرادا » جديدا لمركز التدريب ·· لم يمض عليهم عشرون يوما بعد ·· ما زالوا يحملون ذكريات القطار الذى جاءوا به ·· قال أحـــدهم ·· وأنا جاى فى القـطر ليس فى دماغى قفص قوطة من الزحمة ، وقال آخر وأنا بقالى خمسة أيام فقط فى مركز التدريب ، ولسه مااستلمتش الشغل فى الموقع ومعايا دبلوم برادة ، وقال الثالث أنا عمرى ماجيت أسوان أبدا · وكنت جايب معـــايا حلة طبيخ آكل منها ولكنها باظت فى السكة ··

شلة رائعة من الشباب ·· لم تنبت شواربهم بعد ·· كلهم يتكلمون فى آن واحد ·· وكان من المستحيل أن نستمر هكذا ولا بد أن نتعارف أولا على الاقل بالاسماء ·· وجاءت أكواب الشاى على ورقة كرتون كانت فى الاصل نتيجة قديمة ·· وبدأنا نتعرف ··

الاول اســـمه عبد العزيز مصطفى عمره ١٨ ســـنة ، ومن كفر المصيلحة ، دبلوم برادة من شبين الكوم ، متوسط القامة ، أسمر ، ذكى ، متحمس · قال : وصلت الى السيل من أسبوع · وسكنت مع زملائى دول ولم أكن أعرف واحدا منهم من قبل ، وما زال الحنين الى أهلى بيعذبنى ··

وقاطعه زملاؤه ، وأسرعوا يحضرون الينـا عشرة خطـابات مغلقة وعليها ورق البوسـتة وقالوا : أهو كل يوم بيكتب جوابات بالطريقة دى لكن الجواب ده هو المهم ·· وضحكنا ·· وسكت هو لحظة وقلنا له هل تستطيع أن نقرأه ·· فأجاب بسخاء شديد وبعد تردد ، ممكن ، أقدر اكتب غيره الليلادى ! ·

الثانى محمود الشريف من برمبال القديمة مركز دكرنس ، ١٩ سنة ، تخرج من قسم البرادة ، «وكان الشغل قدامى فى مضرب أرز بينه وبين بيتنا خمس دقايق مشى ، ولكننى رفضت ، عاوز الخبرة فى السد ، بقالى هنا ١٦ يوم ، شفت الانفاق لاول مرة فى حياتى ، أنا أحب الحياة الصعبة ··»

وتدخل الشاب الاول صاحب الجواب وقال أنا شفتها من سنتين ،

وبقالى سنة أعرفها وعندى ثقة انها حتنتظرنى ، أجمل حاجة فيها عينيها متناق لها جدا اسمها سناء بس اوعوا تكتبوا ان اسمها سناء ٠٠ وقاطعه محمود مرة أخرى : ما تصدقهوش ٠٠ أنا أجيبلكم القصة اللى جايب منها الالفاظ الشاعرية دى ٠٠ قصة بين الاطلال ٠٠!

وواصل محمود الشريف كلامه ٠٠ أنا أحب الحياة الصعبة ٠٠ لما كنت فى الاعدادية شفتها لاول مرة وأنا فى الطريق الى مدرستى ٠٠ اعجبت بها . تبادلنا نظرات الاعجاب . وكنت فى بلدنا وسيم جدا ٠٠ وظللت سهور نتبادل النظرات فقط ونتغذى عليها دون كلمه واحدة ٠ أحيانا ابتسامه يغطيها حياء شديد ، حلوة جدا والله ٠٠ ولم يتركه ابراهيم عبد الجليل يكمل حديثه فقال ان قصه محمود طويله جدا ٠٠ ده احنا كنا بنبعتلها جوابات باسمه ٠٠ أصله زميلنا ولازم نساعده طبعا كنا بنبعت لها جوابات مع طلبة تانيين قرايبه ، كل الناس كانت عارفة، أصل أنا بلدياته ، كنت معاه فى البلد ، والدتها كانت عارفة ٠٠ شوف صورتها (وأرانا صورة مكتوب عليها : للذكرى أهدى صورتى الى أملى وحياتى ومنى قلبى حبيبى الغالى محمود الشريف) ٠٠ وتناقلت الايدى الصورة وقال أحدهم دى بتاكل رز كتير ! وترك محمود الصورة لزملائه والتفت الينا : عجبنى فيها شعرها وعينيها ٠٠ وأدبها واخلاصها الشديد لى ٠٠ أجمل بنت فى الدنيا ٠٠ (ثم بعد لحظة وهو فى قمة انفعاله) أنا باحلم أخترع حاجة فى صنعتى لسه ما تعملتش ٠٠!

الثالث أو الرابع ، لم نعد ندرك ، اسمه عبد المنعم عبد المطلب ، ولد فى البراجيل وعاش فى العجوزة ، وتعلم فى صناعات شبرا عمره ١٩سنة أيضا .. « وصلت هنا من عشرين يوما . واتدرب الآن فى المركز لاعمل فى خطوط الكهرباء ،بيقولوا فيه طريشه هناك وتعابين ولكن أنا مبيهمنيش حاجة ٠٠ جيت قبل كده من ٩ شهور فى رحلة مع المدرسة وشفت السد، ومن يومها قررت العمل هنا ، شفت عربيات الماز الكبيرة والأوناش والشغل الجبار ٠٠ بلعب ملاكمة ، وعندى سبع اخوات ونفسى أشتغل وأترقى لغاية ما أوصل وأبقى مهندس ، متعجبنيش بنات القاهرة ، خاطب واحدة قريبتى من الفلاحين ، الناس كلها بتقول انى مش حتجوزها ، لكن أنا حجوزها ٠ فى وقت فراغى بغسل هدومى ٠٠

وقال ابراهيم عبد الجليل أنا فوجئت لما شفت مدينة السيل وكيما بالنسبة لبلدنا ٠٠ أنا صدمت فى حبى وعشان كده مش ححب تانى ٠٠

طموحي أعمل عمل كويس ، في أي مجـسال أكون فيه لازم أسد ولازم أحافظ على سمعتي •

أكبر هذه الشلة سـنا هو أحمد دسوقي ٢٣ سنة ، مواليد اسنا وعاش في القـاهرة ، وأخذ الدبلوم من زين العـابدين ، وسيعمل في الخطوط ، كان أمامي فرصة للعمل في القاهرة ولكنى فضلت السد لابدأ حياة جديدة ، السد بيعلم الصبر ، أحب أقرأ : لطه حسين والسباعي ، وأحب الـكتب الحزينة ، واللى فيهـا الم ، اتجاوب معاها ، المعذبون في الارض ، بين الاطلال ، في بيتنا رجل ، احنـا مدينين بكل شيء للرئيس جمال ، لولا هذا الرجل ما تحققت كل هذه الأشياء العظيمة•• المجد اللى بيتبني هنا في السد•• حياتنا هنا مشتركة عايشين سوا ، بنطبخ وناكل سوا ، وكلنا متفاهمين أعمارنا وميولنا متقاربة •• ساعات بنتخانق على غسيل الطبـاق ، وعلى ملو الزير ، وعلى اللى ينزل يشترى الجـاز لاننا عايشين في خامس دور ، وتخريط البصل بالقرعة ، ميزة الحياة الجماعية ان احنا بننسى الجو اللى كنا فيه ، وبنندمج في الجو الجديد اللى احنا داخلين عليه ، احنا بالذات بنعانى من مشكلة الحنين للاهل وللبلد وللحب وللحياة اللى عشناها طول حياتنا ، والحياة الجديدة صعبة شوية عاطفيا ولكن لاننا مع بعض ولاننا بنشتغل لمستقبل البلد كلها ده بيسـهل الامور •

أقدمهم في الشقة — ٢٢ يوما ! — اسمه سعيد عبد ربه ٢٠ سنة من مليج مركز شبين الـكوم ، براد أيضـا ، ويتـدرب على تركيب مولدات الكهربا ، قال : أنا زرت أول ماجيت خزان اسوان، الخزان ما اشتركناش فيه احنا المصريين بنفس القدر اللى بنشترك فيه دلوقت فيالسد العالي• قال أنا ماشفتش والدى أبدا ، مات قبـل ان أولد بشـهر ، عمي رباني وتزوج والدتي بعد افاته ، الجميل ده مش ممكن أنساه أبدا ، لازم اشترك في تربيـة اخواتي وحربيهـم لان عمي كبر في السن دلوقت ، أنا جيت اسوان عشان اقدر أوفر من مرتبي وأساعدهم ، هوايتي سباق الدراجات اشتركت في بطولة المنوفية ، وطلعت الاول ، أنا بطل المنوفية الاول لمدة ٣ سنوات واشتركت في سباق الجمهورية وطلعت التاسع ف ١٢٥ كيلو ، السبب الوحيـد الذى جعلني لا أحب هو أن عمي كانت صـحته ضعيفة فكنت آجي من المدرسـة اروح على الغيط افلح وبعـدين اخذت الدبلوم وجيت على هنا •

آخر واحد منهم اسـمه صابر عبد المعطى الشريف ٢٠ سـنة من

جنزور مركز بركة السبع كنت متوقع اسوان دى قرية بيوتها فى الجبل. ماتوقعتش أبدا أن أرى العمارات دى ، ولا المساكن ولا المحلات التجارية الكبيرة ، لما شفت السد فوجئت مرة أخرى . دى أول مرة اشوفه ، املى اروح بعثة ، جيت هنا عشان الخبرة . عاوز خبرة ، وخصوصا هنا مكن متنوع وكله جديد على بلدنا .

***

هدأت الضجة ، وشربنا دور شاى جديد ، وانطلق صوت أم كلثوم من الراديو الترانزستور وفتحنا جواب عبد العزيز لنقرأه ..

عزيزتى سناء ..

تحياتى واشواقى الزائدة ارسلها اليك يا عزيزتى بعد سفرى الى اسوان بلد السد العالى بلد النضال والكفاح ، من اجل معيشة أفضل تحياتى العاطرة أرسلها اليك يا أعز الاحباب، اليك يا هدى الانوار، اليك يا عزيزتى أننى أقدم اسمى آيات التقدير واهديها لك وللاسره جميعها والوالدة، سلام كثير اليها والاخت سوسو سلامى اليها وتحياتى وسلامى لمحمد وعلى .

وبعد ..

لقد سافرت من بلدكم وأنا كنت فى منتهى الزعل لفراقكم بعد أيام سعيدة أيام احملها دائما هنا فى ذكرياتى واتذكرك دائما يا صديقتى العزيزة ولكن أنا قبل سفرى لن أتمكن من لقائكم لانك انت عارفة يا سناء آه ، وأنا لن أريد اى زعل علشانى يكون بينكم وأنا صابر لآخر لحظة عشان نتقرب من بعض ونكون حياة سعيدة وأيام جميلة وربنا يوفق فأرجو الا تكونى زعلت علشان كده وارجو أن تتذكرينى دائما مثل ما انت دائما فى ذاكرتى وفى تخيلى كل دقيقة يا عزيزتى .

وبعد ..

عزيزتى سناء ، أنا هنا ساكن فى شقة مكونة من ثلاث حجرات (لم يقل انه مع أكثر من عشرة زملاء فى نفس الشقة ..) وصالة ودورة مياه والشقة مفروشة .. ! بجميع أدوات المطبخ وعندى سخان بالكهرباء كمان .. ! والحياة هنا كويسة جدا ولا ينقصنى غير رؤياك يا عزيزتى .. وأريد أن القاك فى القريب العاجل انشاء الله وانا الآن أتقاضى مرتب كويس جدا وأنا فاتح دفتر توفير وعامل جمعية

بحوالى ٣٧ جنيها ، كل شهر ثلاثة جنيهات وأنا سأدع فى مكتب التوفير ٥ جنيه كل شهر غير الجمعيـــة لانى أتقاضى مرتب شهرى الآن ١٥ جنيها لمدة ثلاثة شهور وبعد ذلك ١٨ جنيها وبعد ذلك ٢٢ جنيهـا أى فى شهر مايو ١٩٦٦ (حسب الحسبة بعد استلامه العمل باسبوع واحد ولمدة سنة قدام !) ٠٠ وأنا سعيد جدا ولكن حزين جدا على فراقك يا عزيزتى ولكن اتمنى أن أغمض عينى وأفتحها على لقاك ولكن اننى أطلب منك شىء وهو أملى هنا ، وأنا أعيش على ذكرياتى وهو اننى أطلب صورة منك ياعزيزتى فى القريب العاجل فى خطاب مهما كلفتك الظروف وقولى لماما وهى مش راح ترفض ياسناء أنا واثق من ذلك ، وقبل آن أختم خطابى أقول لك ياعزيزتى اننى أريد ان خطاباتى التى ارسلها اليك لا أريد أحدا مهما كان قريب أو بعيد ٠٠ أن يقرأها أو يعلم بأى شىء يا عزيزتى ٠

وفى الختام تقبلى تحياتى وأشواقى الزائدة اليك يا عزيزتى ٠

عبد العزيز

العنوان : اسوان ــ السيل الجديد ــ عمـاره ٤٥ شـــقة ١٩ عبد العزيز مصطفى عمر ــ ارسلى الرد على هذا العنوان حتى ولو سرقة من وراء ماما ... !

الصعود

منذ اللحظة التي تبتعد فيها عن السـد جنوبا ـ في بحيرة ناصر ـ ليس هناك غير الماء والشمس ··· والاطلال !

والأطلال هي بقايا القرى النوبية القديمة التي تتناثر على اليمين وعلى اليسار · معظمها تغطيه المياه ·والباقي ينتظر دوره في هدوء واستسلام المحكوم عليه بالاعدام ·

ومنذ اللحظة الاولى التي تظهر فيهـا بقايا قرية دابود ، تبـدأ تلك السلسلة الاسطورية من معابد النوبة ·

ان شـاطيء النيل من السـد حتى اسوان أشـبه بصفحات كتاب تاريخي ضخم افتتحته مشروعات المياه ·

فمنذ خزان اسـوان عام ١٩٠٢ والفيضانات المتتـالية كانت مياه التخزين تهدد بغمر المعابد بل وكانت تغمرها بالفعل تمـاما معظم شهور السنة دون أن يفكر أحد في أمرها ·

وربما كانت هذه الخزانات والسـدود هي المسئولة عن الابحاث والدراسات والاكتشافات التي ارتبطت بعملية انقاذ المعابد ، والتي دارت سنوات طويلة اشترك فيها علماء الآثار المصرية من جميع أنحاء العالم ·

***

ان أول صفحات هذا الكتاب تبدأ من عند اسوان ·· من جزيرة فيلة أولى ضحايا النيل العظيم ·

لقد كانت جزيرة فيلة هي الحد الطبيعي بين مصر والنوبة · وفيها أحد مدافن الاله أوزوريس وزوجته ايزيس · وكان سكناها في القديم وقفا على الكهنة ·

وبجوار معبد ايزيس تقوم اطلال كنيسة لماريا العذراء .. !

والواقع أن جميع الحضارات قد توالت على النوبة · من فرعونيـة ويونانية ورومانية وقبطية وعربية وعثمانية ومملوكية ·

وربما كان السبب في ذلك أن النوبة كانت فيما مضى همزة الوصل بين مصر وقلب القارة الافريقية ، معبرا للقوافل التجارية ومفتاحا لقبائل الغزاة · وكانت فيها منـاجم الذهب ومحاجر الديوريت المتين ، وكانت أيضا موردا لا ينضب من الرجال للجيش وأعمال السخرة ·

فبجوار مقـابر البليمي ـ ملوك النوبة القدماء ـ فى بلانة ، كنيسة قديمة اسفلها كنيسة أخرى فى باطن الارض بناها المسيحيون فى عصور الاضطهاد الرومانى ·

وفى ابريم بقايا مسجد أقامه المماليك أثناء اقامتهم فى النوبة بعد هروبهم اليها عقب مذبحة القلعة ، وأسفل قصر ابريم معابد صغيرة من عصر الدولة الحديثة ثم كنيسة قديمة بداخلها سرداب يؤدى الى كنيسة أخرى ·

وفى عنيبة الفا مقبرة يرجع تاريخهـا الى سـنة ٢٠٠٠ ق.م. وبجوارها مقابر الجنود اليوغوسلاف (اقليمى البوسنة والهرسك وقتها) الذين أرسلهم السلطان سليم فى حملة لفتح النوبة ·

وفى توشكى مقابر ضحايا المعركة الفاصلة التى دارت بين دراويش السودان ـ بعد استيلائهم على السودان اثر الثورة المهدية ـ وبين الجيش المصرى بقيادة جرانفيل·· التى دارت فى يوليو ١٨٨٩ وقتل فيها النجومى زعيم الدراويش ·

ولكن أروع هذه الآثار ، وأحدثها اكتشـافا ، هى ٤٠٠٠ لوحة نادرة من العصر الحجرى غيرت كل المعلومات الاثرية المعروفة · وأجملها اللوحة الصخرية بكورسكو ، وهى أول لوحة يعثر عليها فى العالم ، رسمها انسان العصر الحجرى القـديم منذ أكثر من عشرة آلاف سـنة ولا زالت ألوانها ثابتة الى الآن ·· ووزن هـذه اللوحة أربعة أطنـان ، وقد سجل عليها الانسان القديم رسوما لعجل البحر والسيد قشطة الذى يبدو أنه كان يمثل خطرا بالغا على حياته ، فرسم له صورة يسخر فيهـا منه ، اذ رسم غزالا يمتطى السيد قشطة ويسوقه كما يريد .. !

***

الا أن النوبة ارتبطت تماما باسم رمسيس الثانى ··

فهو صاحب أغلب المعابد المقامة بها ..

وهو صاحب معبدى أبو سمبل الهائلين ..

ان عدد المعابد التى أقامها رمسيس الثانى فى النوبة تسعة معابد من الشلال الاول الى الثالث .. بل ان آثار رمسيس تمتد من انهار لبنان حتى السودان .

وبينها ينتصب معبد أبو سمبل فريدا فى تصميمه الخارجى بالغا فى روعته ، يكاد يكون الاثر الوحيد من نوعه فى العالم .

وتتصدر أربعة تماثيل ضخمة لرمسيس واجهة المعبد الكبير . اثنان على كل جانب من المدخل وفوقهما حارسها رع ـ حوراختى الذى يحمل رأس صقر ويضع فوقها قرص الشمس والافعى المقدسة ، وبين أقدام التماثيل الاربعة تنتشر تماثيل الملكة نفرتارى والامراء والاميرات .

وفى أعلى الواجهة يمتد صف من القرود تهلل للشمس .

فهى فى وضعها هذا أول من يلتقط أشعة الشمس كى يطمئن الملك الذى كان يخشى دائما غروب الشمس . ذلك أن الشمس كانت تغرب دائما فى العالم السفلى .. ولهذا جعل المدخل بحيث تسقط عليه أشعة الشمس الاولى مباشرة .. وهذه هى معجزة المهارة التى حققها الفنانون المصريون القدماء عندما حفروا ١٨٠ قدما فى الصخر ، فى خط مواز لأشعة الشمس ، التى تتسلل أيضا الى داخل المعبد .

وفى الداخل ، على جانبى البهو الرئيسى ، تنتصب ثمانية تماثيل كبيرة لرمسيس فى صورة اوزوريس .. فرمسيس لا يكف أبدا عن التقرب من الآلهة والتمسح بها بل والجلوس بجوارها .

ففى حجرة المعبد الخلفية قدس الاقداس ، يجلس أربعة من الآلهة على عرش ضخم فى كبرياء وقد نحتوا جميعا من الصخر الحى .. آمون رع ، رع هوخارتى ، بتاح ... ورمسيس .!

ان أشعة الشمس لا تصل الى قدس الاقداس الا يومين فقط فى السنة هما ٢٣ فبراير و ٢٣ أكتوبر .

ولقد رأينا الشمس تضىء قدس الاقداس بأشعتها لاول مرة فى التاريخ .. فى أغسطس الماضى .. عندما رفع عمال الانقاذ سقف مقر

الآلهة العتيد . وظهرت لأول مرة في جلاء تام الالوان الشاحبة التى استخدمها الرسامون منذ أكثر من ٣٢٠٠ سنة ..

ومن قدس الاقداس تقودنا الارضية البالية الى أصغر القاعات التى يستند فيها السقف الى أربعة أعمدة مربعة حفرت عليها صور رمسيس مع الآلهة وهو يقدم القرابين الى ايزيس ومين ـ آمون .. والى نفسه..!

فبينما كان رمسيس يبنى أبو سمبل اكتشف في نفسه الها جديدا .. فشرع يجرى تعديلات فى نقوش المعبد .. وحشر نفسه حشرا بين الاله مين آمون وايزيس وبين آمون وموت . وكانت موت جالسة على مقعد خلف زوجها ، فجعلها المثالون تقف ليفسحوا مكانا لرمسيس .

وتنبض القاعة الثالثة بصور الحركة والحياة والحرب .. فهنا يبدو رمسيس مع صف من بناته العديدات يعزفن على اداة موسيقية ، وفى صورة أخرى يبدو رمسيس فى ضعف حجمه. يضرب مجموعة من الاسرى الآسيويين على رءوسهم بصولجانه . وتتتابع النقوش التى تروى تفاصيل معركة قادش التاريخية التى افلت فيها رمسيس من هزيمة محققة بشجاعته وجسارته .

ويروى أحد نقوش هذه المعركة الفصل الختامى منها .. عندما عقدت أول معاهدة دفاع مشترك وعدم اعتداء فى التاريخ ..!

فقد ارسل الحيثيون وفدا لعقد المعاهدة التى نصت على ألا يغزو أحد الجانبين الآخر ..وأن يتبادلا المساعدة فى حالة وقوع عدوان على أى منهما من دولة أجنبية ..!

***

وعلى مبعدة خطوات من المعبد الكبير يقوم معبد أبو سمبل الصغير.. الذى أقامه رمسيس تكريما لنفرتارى أحب زوجاته اليه .

ويتصدر رمسيس واجهة المعبد الصغير بالمثل .. ولكنه يقف هذه المرة وبين تماثيله الأربعة تمثالان لزوجته ـ لأول مرة فى مثل حجمه ـ بردائها الشفاف وشعرها المتدلى على كتفيها .. وقرص الشمس على رأسها .. وحول سيقان التماثيل الضخمة يقف أطفال صغار فى ارتفاع الركبة .. وفوقهم نقش يقول للعالم : « ان رمسيس جعل هذا المعبد فى شكل حفر فى التل كعمل خالد فى أرض تاستين ولم يصنع شيء مثله من قبل».

لقد مات رمسيس بعد حياة طويلة استمرت ٩٢ سنة ٠٠

وعلى سيقان تماثيله حفر الكثيرون بعده اسماءهم طمعا في الخلود ٠

ولقد تحقق لهم ما أرادوا ٠

فطوال قرون ٠ كانت الرمال تغطى المعبـدين وتحميهما من مختلف الغارات والاعتداءات التى اطاحت بالكثير من الآثار ، بل ظلا مجهولين تماما من العالم حتى تم اكتشافهما فى عام ١٨١٢ ٠٠!

ولكن ٠٠ هل يقوم مئات العمال المصريين ومعهم خبراء من جميع أنحاء العالم بانقاذ المعبدين والصعود بهما فوق الجبل ٠٠ كى يضمنوا الخلود الأبدى لتلك الوجوه الضخمة التى تبتسم للشمس والرمال فى دعة وثقة تثير ان الاستفزاز ٠٠ ؟

كلا ٠٠ لسبب بسيط تماما ٠٠

فان من يقف أمام هذه الرءوس الضـخمة لا يملك الا أن يفكر فى الخمسة والعشرين الف عبد مصرى ، الـذين نحتوا هذين المعبـدين فى الجبل وعملوا بصورة متصلة لمدة ثلاثين سنة ، ليذيبوا فى أصابعهم، التى كانت تتحسس الصخر فى حب ، كل ما كانوا يعانونه من ذل وعبودية، وليتحدوا العالم بمعجزة صـخرية لا زال يجهل كيف حققوها بوسـائلهم البدائية المتخلفة ٠

ان المهندس العادى عندما يضع تصميم اى بناء ، يضعه على ارض خلاء يستطيع ان يراها ويعاينها ٠٠ فيضع الخطوط والتصميمات ثم يبدأ البناء ٠

ولك ان تتصور اناسا يخططون ويرسمون وينفذون البناء فى وقت واحد فى كتلة صخرية صماء لا ترى أعماقها على الطبيعة ، دون ان تكون لديهم آلات الحفر التى تعمل بالضغط وبالكهربا أو الاشعة التى تخترق المكان وتكشف عن طبقاته الجيولوجية وطبيعة تكوينه ٠٠ لاشىء سـوى الفئوس والمزاميل والمقاطف ٠٠ !

هؤلاء هم الذين نرفعهم الآن فوق الجبل ٠٠ !

***

وقد بدأت قصة انقاذ أبو سمبل منذ اللحظة الأولى للتفكير الجدى فى مشروع السد ٠

كان من الواضح ان السد يهدد ٢٣ اثرا هاما فى المنطقة بالغرق ..

وكان هناك بصيص من الأمل .. فهذه الآثار كلها مبنية من الحجر فلماذا لا نرفعها من مكانها ونقيمها فى مكان آخر ؟..

وهذا ما حدث بالفعل ..

وبدأت العملية فى عام ١٩٦٠ بانقاذ معابد تافاه ، ودابود وقرطاس ثم الدكا ودندور والمحرقة فى ٦٢ وكلابشة فى ٦٣ وقد أقيم من جديد الى جوار السد مباشرة ومعبد عمدا الهائل الذى نقل فى ٦٤ على عجلات تجرى فوق قضبان بسرعة ١٠ سم كل ٨ ساعات ..!

وفى ٦٥ حل الدور على معبد الدر واللوحات الصخرية فى معبدى جرف حسين وابى عودة .

كان المعبد يفك الى قطع صغيرة مرقمة تنقل الى مكانه الجديد فى اعلا ثم يعاد تركيبها هناك .

أما أبو سمبل فكان قصة أخرى .. لأنه كان منحوتا فى الجبل .

وتتابعت المشاريع المختلفة لانقاذه..مشروع ايطالى بوضع المعبدين فى صندوقين هائلين .. ومشروع فرنسى ببناء سد يحيط بالمعبدين .. ومشاريع فردية مثل مشروع ماكوينى .. وأخيرا المشروع السويدى الذى أقر فى النهاية .

***

واجتمعت لجنة خبراء برئاسة البروفسور ميخالوفسكى ، أستاذ الآثار المصرية بجامعة وارسو ، وعضوية أنور شكرى الأثرى المقيم ، وقررت ألا يزيد تقسيم المعبدين عن ١٢ الف قطعة يتراوح وزن كل منهـــا بين ٢٠ و ٣٠ طنا .

وبدأ العمل فى تخليص المعبد .. فنحتت محاريث الصـــلب فى الجبل لتصل الى سقف المعبد حتى وصـــلت الى صف القرود التى تهلل للشمس كل صباح ، وفي أغسطس ٦٥ توقفت المحاريث لتبدأ المناشير الكهربائية الدقيقة عملها .

وكانت العملية دقيقة للغاية ..

فعندما تم تخليص المعبد نهائيا من الجبل ، وأصبح يقف وحده لأول مرة فى التاريخ ، وضع العالم كله يده على قلبه .. فقد كان الخوف ان

يتمدد المعبد وينتفخ بعد أن تخلص لأول مرة من ضغط الجبل ·· أو يحدث العكس فينكمش وفى كلتا الحالتين ينهار ·

ولكن العملية الوقائية التى اتخذها الخبراء ، وهى ربط المعبد من الداخل والخارج بضغط الهواء على سقالات خشبية وحديدية ، أدت الى ثبات المعبد على حجمه الاصـــلى دون ادنى تغيير الا من بعض الشروخ الحائطية والحالات الطفيفة التى انفصلت فيها الرسوم عن الحائط وكلهـا حالات عولجت بسهولة ·

وكانت المعامل الكيماوية تدرس جميع أنواع الصخور التى يتكون منها المعبد لمعرفة مدى تحملها لعمليات القطع وكيفية تفويتها ·

وفى سبتمبر ١٩٦٥ انتهى تقطيع المعبدين ورفعهما ·

وعندما تقرأ هذا الكلام يكون قد بدأ العمـــل فى تركيب المعبـد الصغير ·· ويستغرق ثمانية شهور وفى أغسطس ٦٦ يبدأ تركيب المعبد الكبير ·· ويستغرق تركيبه ١٤ شهرا ·

ولا بد ان تكون قطع المعبدين فى موقعهما الجديد فى أول أغسطس سنة ١٩٦٦ قبل ان تصل مياه الفيضان فى سبتمبر الى منسوب ١٣٣ ثم يقفز فجأة فى ديسمبر الى ١٤٤ فتبتلع المياه الموقع القديم ·· ومعه السد الصغير الذى انتهوا من بنائه قبل مجيئنا بشهر وتكلف ٢ مليون جنيه ·· ليذوب مع فيضان ٦٦ ·· !

***

ان ١٢٠٠ عامل مصرى مع ١٠٠ موظف ومهندس وخبير اجنبى من بلجيكا وفرنسا والسويد والمانيا الغربية وايطاليا ، يعملون ثلاث ورديات فى اليوم ، ولا زالت امامهم عدة سنوات أخرى قبـل ان ينتهى العمـل الكبير ·

وتضم الشركات الاتحادية شركة مصرية تشـترك فى الانقـاذ بفرع منها ، والفرع الآخر يقيم المدينة الصغيرة الانيقة فوق جبل الشيطان ·

***

والمدينة الصغيرة تغرق نفسها فى العمل كى تنسى وحدتها ··

تنس الطاولة هو التسلية الوحيدة ·· الراديو لا تتبينه جيدا ·· السينما نادرة ·· والافلام لايراها سوى الخبراء الاجانب وبعض الموظفين

والمهندسين المصريين ، بينمـا يقيم ١٢٠٠ عامل مصرى فى منازلهـم ·· غالبيتهم لا تزال تقيم فى الخيام حتى الآن فى انتظار انتهاء المبانى ·

والجو الذى يسود أبو سمبل جو غريب جدا ·· تشعر بغرابته عندما تكون قادما من السد ·

الهدوء ·· علاقات محددة··عمل سينتهى بسرعة ليعود كل انسان الى حاله ·· الاجانب اجانب بالفعل · أروعهم السويديون · ويأتى الالمان فى آخر القائمة ·

وفى الجمعية التعاونية التى تزدحم بمختلف البضائع ولا ينقصها شىء شـاهدنا فتاة المانية جميلة تعنف البائع بعنجهية أميرات القرن الرابع عشر ·

وقال لنا المهندس أمير أبو الوفا ·· ان الالمان هكذا دائما ·· وروى لنا كيف انتقم العمـال المصريون منهـم عندما قطعت بلادنا علاقاتهـا الدبلوماسية مع المانيا الغربية ، فأخذ العمال سيارات المرسيدس الكبيرة وطافوا بالبلدة الصغيرة يهتفون بحياة ناصر ويلوحون بقبضاتهم فى وجه الالمان ··!

***

وعندما تتحرك بك الدكة ـ وسيلة المواصـلات الوحيدة الى أبو سمبل ـ لتعود بك الى السـد لا تملك الا ان تتنهد فى ارتياح وشـاطىء جبل الشيطان يتراجع أمامك ·

كأنما تغادر دنيا الموت ، وتعود الى الحياة من جديد ·· !

ـ ٢ ـ

وفى رحلة العودة كما فى رحلة المجىء ، تمر بابواب ونوافذ القرى النوبية القديمة التى تحدق فى صمت أسود رهيب ·

وتتـذكر رمسيس الذى كان يقبض على رءوس الاسرى النوبيين ، والنوبيين الذين يجرون أمام عربته الحربية ·

وتتذكر آلاف المعـارك الدامية التى دارت حـول ابريم والدكة وغيرهما ·

فمنذ غزا سنفرو ، آخر ملوك الأسرة الثالثة ، بلاد النوبة وعاد بسبعة آلاف أسير نوبي و ٢٠٠ر١٠٠ رأس من الماشية ، وصفحات تاريخ النوبة تكتب بالدم ٠

منجم للذهب والرجال ٠٠ هكذا كانت النوبة دائما ٠

***

وفي هذه القرى الصغيرة كان النساء ينتظرن في رعب ، سنوات طوال ، الرجال الذين سافروا الى القاهرة والاسكندرية ليعملوا خدما وبوابين ولم يعودوا، وكان الاهالي يتوجسون رعبا من الفيضان والتحاريق والذئاب التي تخطف الاطفال والعقارب ،ولم يحدث أبدا أن شاهدوا سيارة ولم يروا الكهربا الا في السفن التي كانت تعبر قراهم ليلا ، وكانت هذه السفن - التي تأتي مرة كل أسبوع - هي نافذتهم الوحيدة على العالم - يجرون الى الشاطيء لينتظروها وينتظروا معها الاخبار والرسائل ٠٠ والرجال الذين لا يأتون ٠

ان نصف ساعة بالأوتوبيس من اسوان تكفي الآن لتنقلك الى أقصى أطراف النوبة ٠ الجديدة ٠

وتكفي ساعة ونصف الآن كي يذرع النوبي كل قرى النوبة بالطول وبالعرض ٠

ففي ١٨ اكتوبر ١٩٦٣ صعد ٥٧ ألفا من أهالي النوبة شمالا في الوادي الأخضر الى قراهم الجديدة ٠٠ حاملين معهم أكياسا من تراب الوطن القديم وحجارته ٠

***

وليست هذه هي المرة الأولى التي تؤثر فيها مشروعات النيل على حياة النوبيين ٠

ان المتقدمين منهم في السن لايزالون يحكون عن خزان أسوان ، عندما طردتهم المياه من مساكنهم وجعلتهم يصعدون الى أعلى في النهر ، أو يهربون الى اقصى الشمال ٠

في تلك الايام كانوا حقا ضحايا النيل .. فلم يلقوا أية عناية وكانت التعويضات التي صرفت لهم هزيلة تماما ٠

وكانت المأساة تتكرر في كل تعلية ٠

ولعلها أول مرة فى حياتهم تلك التى وقف فيهـــا الرئيس جمـــال عبد الناصر يتكلم اليهم فى سنة ١٩٦٠ ويقول لهم: ان المصريين والنوبيين أسرة واحدة وان العزلة التى عاش فيها النوبيون منذ القدم قد آن لها أن تنتهى ٠

واختار النوبيون منطقة كوم امبو شمال اسوان لتقام فيها قراهم الجديدة بنفس الوضع الجغرافى القديم ، ونفس الاسماء ٠

وانقضت مياه السد العالى على الاربعين قرية القديمة تغرقها لتصنع منها أكبر بحيرة صناعية فى العالم مساحتها ٤٠٠٠ كيلو متر مربع ٠٠ وعرضها ثمانية كيلو مترات وطولها ٥٠٠ كيلو متر ٠

***

وفى بلانة الجديدة شربنا الشــــاى النوبى بالنعناع وتجولنـا فى المدرسة والمستشفى الصغير الحديث ، والمشـــغل حيث يعلمون الاطفال الصناعات اليدوية والسجاد ، ويعطونهم أجر ما يصنعونه ، وعلى مشارف القرية حيث تمتد الحقول الخضراء لاول مرة منذ آلاف السنين ٠

ورأينا الجمعية التعاونية ، ودكاكين البيع ، والمخبز ومكتب البريد والتلغراف والتموين ، والبنك ٠

ونحن نذكر مثل هذه الأشياء لأن القرى القديمة لم تكن تعرفها على الاطلاق ٠

فلم يكن فى النوبة كلها غير مستشفى عنيبة ٠ ومركب عائمة بهـا وحدة صحية ترسو على شاطىء كل منطقة شهرا .. فتعود الناس على العلاج بالاعشاب ٠ وتصوروا حالة مصران أعور فى «ادندان» ٠٠ وبينها وبين عنيبة ١٢٠ كيلو ، أى يومين فى سفينة أو ثلاثة على حمار ٠٠ !

وفى النادى التقينا بالرجال ٠٠

كانوا يقرءون ويستمعون الى الراديو .. فى جلاليبهم الناصـــعة البيضاء ووجوههم السمراء النظيفة ٠٠ لم يكن بينهم شاب واحد ، فقد كانوا جميعا من المسنين ، أما الشباب فليسوا فى القـاهرة ٠٠ انهم اما فى الحقول المجاورة أو المصانع أو فى السد ، فلـكل أسرة خمسة افدنة ومنزل وجاموسة ٠٠ بينما تتضمن الخطة الخمسية لتطوير اسوان تأسيس خمســة مصانع فى منطقة كوم امبو خصيصا للنوبيين لاعطائهم فرصـــة العمل ٠٠ مصنع للسكر وآخر لحفظ الخضروات وثالث لتجفيف البـــلح وتعبئته ٠٠ ورابع للالبان والبسترة ٠

كنا نجلس في حلقة واسعة من ذوى الجلاليب البيضاء ..

وجاء ذكر النيل ..

ولمع في العيون وميض رقيق شارد ..

لقد كان الشاب عندما يتزوج يذهب الى النهر وحيدا ، يحمل سيفا وكرباجا ويربطه بسكين ذى حدين على ذراعه الايسر منعا للحسد ، ويغرس سيفه على الشاطىء حارسا له ريثما يستحم في النيل .

أما الآن فهو يكتفي في مناسبة الزواج بسيف من الخشب .. فقد ذهب النيل .

وفي قرى النوبة الجديدة تتردد في الليل الذى ينتظر الكهرباء من السد .. أغنية نوبية تقول :

ارتفع بمياهك الى حد البيوت ..

واضرب بها العتبات في رفق ..

ولتتعانق انت وهي معا ..

ولتناجها .. وتهمس في أذنها وحدك . !

فقد تركناها .. لك ..

بلدنا .. يا نيل ..

ورحلنا .. نحن ..

ولا تملك الا ان تشعر بالاسى ، وهو اسى يختفي سراعا عندما ترى الرجال قادمين من السد حيث يعملون ، في زياراتهم الاسبوعية لزوجاتهم وأولادهم .

***

ان كتابا صغيرا صدر في عام ١٩٣٣ باسم «صور من حياة النوبيين» لمؤلف اسمه محمد كامل حته ، يبدو من صورته التى تتصدر الكتاب ، انه نوبى ، يبدأ بهذه العبارة :

« للفطرة روعتها وجمالها .. فمن العقوق اذا ان نهمل هذه الناحية من حياة النوبيين . فهناك تجد الفطرة تطبع الحياة بطابع البساطة والجمال وتصبغها بالصبغة الفنية التى تمثل لنا الانسانية في أطوارها الأولى .. !

وللزراعة أساليبها الفطرية ‥ وطعـامهم فطرى بحت ‥ فهم يأكلون مما تنبت الارض ‥

« ‥ والمرأة النوبية مثـل نادر فى الحيـاة الزوجية ، فهى وفية لزوجها الى حد بعيد ‥ فقد تحرم على نفسها لذائذ الحيـاة طيلة مدة غيابه ، وتتحاشى حتى أكل اللحم او الطعـام غير العادى ، حتى اذا عاد اليها بعد سنين استقبلته باسمة راضية ، وادت له حقوق الزوجية دون تبرم أو استياء ‥‥! » ٠

بل ان مؤلفا آخر هو الدكتور محمد محمود الصياد كتب فى عام ١٩٦٢ ، كتابا بعنوان : « النيل الخالد » أصدرته وزارة الثقافة ، وقال فيه عن بلاد النوبة :

« ‥ الارض فقيرة وكذلك الناس ، السماء شحيحة لا تجود والارض مجدبة لا تغل ‥ ولكن حسب القوم قناعتهم ، والقناعة كنز لا يفنى ! وكفاهم أمانتهم التى اشتهروا بها فأكسبتهم الثقة والاحترام ، انهم أغنياء بجلدهم وكفاحهم فى سبيل العيش ، يضربون فى الارض سعيا وراءه ‥ » ٠

واليك كيف كان يعيش هؤلاء الاغنياء بجلدهم وكفاحهم فى سبيل العيش ٠

فقبل عملية التهجير مباشرة قامت وزارة الشئون باجراء مجموعة من الاحصاءات على قرى النوبة القديمة ، لعلها الاولى من نوعها ‥

وكشفت هذه الاحصاءات عن حقائق غريبة ‥

ان عدد النوبيين كلهم ٤٨ ألف فرد ‥ الثلث رجال والثلثين أناث ‥ أى ان الاناث ضعف الرجال ٠

وال ٣٠ الف انثى منهن ١٨٤٩ واحدة لم يتزوجن ابدا ، و ٦٦١٤ أرملة هذا غير المنتظرات ٠

وفى كشف لتعداد سن المقيمين ‥ يبـدأ عدد الذكور والاناث متساويا ٠ (ففى سن العشرة أعوام الذكور ٢٦١١ والاناث ٢٧٩١) ثم تقترب النسبة من النصف فى الخامسة عشرة (١٣٦٨ ذكرا و ٢١٧١) وتبدأ الفرجة فى الاتساع حتى تصل الى أكثر من الضعف (فى الثلاثين الذكور ١٥٤٦ والاناث ٤٢٠٥) !

فقد هاجر الرجال ‥

ان عدد المهاجرين يصل الى ١٥٥٩٧ رجلا ويبقى فى القرى عشرة آلاف رجل . ولا تخلو أسرة من مهاجر .

وعندما تبلغ المراة سن الخمسين تتغير النسبة : ١٢٢٠ رجلا و ٢٧٦٠ انثى .. فقد بدأ الرجال يعودون .. فى الخمسين .. !

ولكن النسبة تتغير من جديد بعد عشر سنوات . فتتسع الهوة من جديد بين عدد الرجال وعدد النساء .. لتعود الى الضعف .

فما الذى حدث ؟

هل السبب هو زيادة عدد الارامل .. أو أن الرجال يهاجرون من جديد ؟

هل يهاجر ذو الخمسين عاما من جديد .. أو أنه يموت بعد رحلة الشتاء والصيف ؟

***

وتصوروا معنا .. ٤٨ الف رجل هذا هو توزيعهم المهنى ..

مهن فنية وادارية ودينية	٤٥١
تجارة ونقل وصناعات انتاجية	٩٨٦
زراعة	٩٠٩٢
مناجم	٤
لامهنة	٣٥٣١٠ ... !

***

لقد فقد النوبيون النيل .. والسمك .. والنخيل ..

هذا حقيقى .. ولكنهم كسبوا حياة جديدة ..

وفقدواحياتهم الفطرية . أو سيفقدونها . وسيفقدون قناعتهم ..

هـذا أيضـا حقيقى .. فلسـوف تندثر حيـاتهم القبلية . وتظهر لهم تطلعات جديدة . فمن رأى عالم البشر يموج من حوله بكل جديد ، وبكل الطيبات ، لن يقنع بالتراب والماء !

***

وقد قضينا فى ابريم ليلة لا تنسى ..

كنا نتناول عشاءنا في منزل العمدة فوزى مراد ، عندما أقبل رجل غريب ، تائه لا يتكلم ولكنه جلس صامتا ، واحضروا له عشاء .. لم يكن أحد يعرفه ولكنهم مع ذلك اطعموه . وقدموا له الشاى والسجائر .

ولم يسأله أحد عن اسمه .. وقال انه من قرية بعيدة تدعى « الجنينة والشباك » وانه كان في السوق ورجع ماشيا فضل طريقه .

وعندما فرغ طعامه أعدوا له مكانا ليبيت فيه الى الصباح ..

وهكذا لم يفقد النوبيون أروع صفاتهم الفطرية .. التعاون والامانة وكرم الضيافة .

وقد كان في كل قرية قديمة دار صغيرة للأضياف ، من المسافرين والتجار الرحل على الجمال ، يأكلون فيها وينامون ، دون أن يسألهم أحد عن اسمائهم أو القبائل التى ينتمون اليها أو القرى التى جاءوا منها .. وكانت القرية كلها تساهم في اطعامهم .

ولكن القرى الجديدة ليس بها دور للاضياف . فقد غفل المهندسون الذين بنوها عن هذه الدور . مما احزن النوبيون في البداية .. ولكنهم الآن لم يعودوا يهتمون بالأمر .. فليس هناك مسافرون أو اغراب كثيرون في المنطقة ، والرجل منهم يستطيع أن يسافر الى القرى الأخرى ليزورها ثم يعود في نفس اليوم.. أما اذا ظهر غريب أو مسافر فانه يتوجه مباشرة الى منزل العمدة أو أى منزل في القرية ليبيت ليلته .

***

وحدثنا أهالى ابريم عن معبد عبد الوهاب الجريدلى ..

والجريدلى فنان داعبه حلم رؤية السد والتعبير عنه سنوات عديدة وعندما تمكن اخيرا من الذهاب الى هناك .. غدر به النيل وابتلع جسده ولوحاته وريشته .

واحضر لنا رجل عجوز صورة كان الجريدلى قد رسمها له .. صورة حية نابضة كلها اصرار وتفاؤل .. وكانت معنا مجلة الكواكب وبها مقال عن الجريدلى للاستاذ محمود أمين العالم .. ومع المقال عدة صور له . وتخاطف الرجال المجلة ، وانطلقوا يتحدثون في صوت واحد وهم يتمعنون في الصور .. نعم . هذه هى المدرسة .. والمأذنة ..

ودار الضيوف .. وهذا هو عم محمود ... ومعزات الخالة صابحة .. وهذه ابريم التى أحبها عبد الوهاب وقضى بها آخر أيامه .

وقال لنا شاب صغير « لقد كنت معه دائما ، وكان يعمل طول اليوم فى الشمس الحارة يرسم ويسجل ويعيش معنا ، ولم تكن معه نقود كثيرة ولكنه لم يكن يحتاج الى شىء ، لقد فتحنا له بيوتنا وفتح لنا قلبه .. » .

وعرفنا منهم كيف قضى الجريدلى آخر أيامه .. فعندما بدأت الهجرة الكبرى لاهالى النوبة من قراهم القديمة الى أسوان ومنها الى قراهم الجديدة ، رافقهم الفنان وشاركهم كل شىء .. حزم الامتعة ، وترقيمها وارسالها الى البواخر .. وكان يركب البواخر النازلة الى اسوان ، ويرجع مع البواخر الصاعدة الى النوبة وهو يرسم طول الوقت بحماس من يعلم ان أيامه أصبحت معدودة .

وفى احدى هذه المرات ــ وفى طريقه الى أسوان ــ كان يجلس فوق السطح يرسم .. وحينما حان موعد الغداء .. ولم يظهر ليتناوله مع أصدقائه .. ذهب أحدهم يبحث عنه .. وفوق سطح المركب وجدوا أوراقه ولوحته مشدودة الى حامل كان يرسم فيها .. لوحة ناقصة لم تتم ، ولا أثر لعبد الوهاب .

وفشلت كل المحاولات فى العثور على جثته .. لقد غاص جسده فى نفس المكان الذى طالما حلم به ، وأصبح جزءا من جسم السد .

ومن الغريب ان عبد الوهاب كاد ان يموت ساعة تحويل النهر .

فقد كان يقف على حجر عال أمام قناة التحويل يسجل بآلة التصوير الحدث العظيم وفجأة اندفعت المياه الهادرة وحطمت كل شىء أمامها واطاحت بالحجر الذى كان يقف عليه الفنان .. ولكنه أنقذ فى آخر لحظة .

وعاش بضعة أشهر اخرى ليموت فى نفس النهر .

***

وكانت الحلقة التى تحيط بمنزل العمدة قد بدأت تتسع .. وفى جانب منها تجمعت النساء بلا خجل مفتعل .. وبدأ الشاعر النوبى يغنى أغنية ساذجة رائعة ..

تركنا ابريم البعيدة
احسن بلد تنتج البلح
حيث غرق النخيل بواسطة مياه السد
واتينا الى ابريم الجديدة
لاجل عيون السد العالى
ولاجل عيون مصر وخاطر جمال
ذهب عبد الناصر الى روسيا
واحضر الرجال والآلات
وذهب معه المشير عبد الحكيم عامر
واحضر السلاح
والروس الحمر الوجوه فى أسوان
فى الشمس مع ابنائنا يبنون السد العالى
وأبناؤنا معهم
والسلاح مع ابنائنا
يحاربون به الاستعمار واسرائيل والانجليز . !

نسمات سبتمبر

دخلت الناظرة الفصل .. ووقف التلاميذ احتراما .. وتراجعت المدرسة فى أدب وهى تتطلع الى الناظرة فى تساؤل ·· وأجابت الناظرة عينيها فى أرجاء الفصل ثم توقفت عند أحد الاركان ·

وتسمرت عيناها على عدد من التلاميذ فى أربع أدراج متتالية ·· ثم تحركت عيناها وطافت بأرجاء الفصل الذى احتشد بالبنات ·

وعادت عينا الناظرة الى الصبية فى الركن ثم تكلمت :

ــ انا مش قلت مفيش ولد يقعد جنب ولد ؟ لازم كل ولد يقعد جنب بنت ·· مفيش ولاد ولا بنات يقعدوا وحدهم ·

وبدأت جلبة فى الفصل··الأولاد يأخذون كتبهم وحقائبهم ينتشرون فى أرجاء الفصل ·· بحيث يضم كل درج ولدا وبنتا ·

***

حدث هذا فى قلب مدينة أسوان العتيقة . ! وفى أولى مدارس البنات الثانوية بها ··!

***

وقالت السيدة زينب حموده .. ناظرة مدرسة اسوان الثانوية للبنات .. انها تريد أن تتحدث مع مجلس الفصل المنتخب .

ثلاث طالبات وطالب انتخبهم الفصل فى اليوم الاول للعام الدراسى الجديد ·

وفى مكتب « الست الناظرة » دار حديث رائع اشترك فيه نواب الطلبة والمدرسات واثنان من الآباء عضوان فى مجلس الآباء ·

وكانت الكلمات التى ترددت فى هذه المناقشة غريبة حقا ..

على الاقل بالنسبة الينا ، نحن القادمون من العاصمة ··!

قالت « الست الناظرة » فى ايمان عميق : أن سيادة الحيـــاة الديموقراطية داخل المدرسة هو الضمان الاساسى لسيادة الديموقراطية

فى البلاد كلها .. فلا أحد يستطيع بعد ذلك أن يقف فى وجه الديموقراطية أو يتراجع عنها .

***

ان التجربة التعليمية الجديدة هى الخطوة الاولى فى مشروع التخطيط الاقليمى لأسوان الذى يعمل فيه الخبراء العرب بمركز تنمية الموارد البشرية .

وكانت المدرسة الثانوية للبنات هى التى اختيرت للتجربة الجديدة .. وتبدأ التجربة فى فصول الصف الاول من الاعدادى والثانوى ، على أن يلحق بهذه الفصول عدد من البنين روعى فى اختيارهم قواعد معينة أهمها أن يكونوا من أبناء أسوان .

والتجربة ليست تجربة اختلاط بين الجنسين وحسب ..

فهى تطبق مناهج جديدة للدراسة هى نفس المناهج القديمة بعد ان قام الفنيون واساتذة التربية بحذف المكرر منها واختصار ساعات بعض الدروس الاسبوعية فى بعض المواد وتوفير الوقت للهدف الاساسى من التجربة وهو ربط التعليم بالبيئة .

فتحاول المناهج الجديدة اقامة صلة بين ما يحصل عليه التلميذ فى المدرسة من مواد وبين البيئة من حوله ، وذلك عن طريق ما يعرف « بالمحاور » ومحاور الانتاج هى السد العالى والمشروعات الصناعية والزراعة والسياحة ، فمن خلال التعرف على السد العالى مثلا يستخلص التلاميذ النظريات الهندسية واللوغاريتمات من خلال حساب مكعبات الاحجار والرمال ، ومسائل الحساب من العمليات المختلفة ، والانشاء والتربية الوطنية من التطور السياسى لمعركة السد .. وهكذا .

وعند تدريس الرياضة مثلا لن تصبح المسألة هى مجرد تحفيظ « التلاميذ للقواعد الرياضية » وانما يتلقون أيضا ـ وبصورة تلقائية ـ قواعد التفكير المنظم .

ويأخذ المنهاج الجديد بنظام التوجيه لاول مرة ، بحيث تدرس ميول كل تلميذ واتجاهاته أولا بأول حتى يسهل توجيهه الى فرع الدراسة الصحيح الذى يصلح له ، وحتى يمكن فى المدى البعيد تلبية احتياجات المشروعات المختلفة فى المنطقة من القوى البشرية التى تحتاج اليها ، سواء فى الزراعة أو الصناعة أو الفندقة .

ولا تقف التجربة الجديدة عند حدود الصغار ..

فهى تتضمن ايضا تعليم الكبار الذين تخلفوا من التعليم بين سن ١٠ و ٤٠ سنة ، والتلاميذ الذين تركوا الدراسة فى المرحلة الابتدائية، فتقام لهؤلاء مراكز تدربهم على الاعمال التى تحتاج اليهـا مشروعات البيئة فى اسوان باختلاف انواعها .

وليس هذا كله الا مركزا واحدا من المراكز الستة للتنمية فى اسوان ، التى ستكون نواة لمعهد أو جامعة تكنولوجية فى المستقبل ، والمراكز الخمسة الاخرى تغطى مجالات الصناعة والزراعة والثروة المائية والسياحية .

***

ومدرسة البنات الثانوية التى تضم ٥٥٠ ولدا وبنتا .. ثلثهم أولاد .. ما زال اسمها مدرسة البنات ..

وقد احتج الاولاد على هذا الاسم أكثر من مرة ..!

بل حدث عند تحويل احد التلاميذ من هذه المدرسة الى مدرسة اخرى ، ان رفضت الاخيرة قبوله لانها لم تتصور فكرة وجوده فى مدرسة بنات ..!

انها أول مدرسة بنات فى القطر تقبل أولادا بها .. !

والغريب ان فكرة الاختلاط لم تجد اعتراضا عند بعض العائلات الأسوانية الصميمة بل ان بعضها تناضل الآن من أجل الحاق أولادها وبناتها بهذه المدرسة بالذات .

وقد تحدثنا الى أحد هؤلاء الآباء فى حجرة الناظرة واسمه السيد القرشى ، وهو عضو نشط فى مجلس الآباء ، وموظف قديم على المعاش، وله فى المدرسة بنتان واحدة فى السادسة عشرة والثانية فى الثامنة عشرة .. ولم يكن يشعر بأى غضاضة من جلوسهما بجوار أولاد فى سنهما .

وقد شهدناهم جميعا فى الفناء .. الاولاد فى جانب والبنات فى جانب أخر .. وقالت لنا زينب حمودة : لا زالوا يهابون التجربة .. ولكنهم سيألفونها بعد قليل .

وعندما هبطنا الى الفناء عثرنا فى صالة جانبية على مائدة لتنس

الطاولة .. فى احد طرفيها فتاة سمراء جميلة .. وفى الطرف الآخر صبى .. وحولهما التف حشد من التلاميذ .. من الجنسين .

***

وفى الايام الاولى لنا بالمدينة ، عندما صدمتنا بحرارتها القائظة وجمودها وكآبتها .. كنا نتساءل ...

لقد مضت سنوات ست منذ بدأت اول ضربة فى الصخر .. ومنذ هدرت اول كراكة فى الجبل . وبعد سنوات قليلة ستهدأ هذه الضجة وتنسحب الآلات والرجال الى مكان آخر .. فهل ضاعت فرصة العمر من أسوان كى تتغير ؟!

وقد وجدنا الاجابة بعد قليل :

فالانسان يستغرق وقتا طويلا ليتغير .. ولكنه يتغير بالتأكيد ما دام وجه الارض المتحجر يلين وينبت المصانع والكهربا .

***

وفى ذلك المساء بعينه كنا نقوم بجولة أخيرة فى السوق العتيد ..

وجعلنا نتشمم الهواء فى لهفة .. فلاول مرة نتنفس فى الهواء رائحة الخريف النقية .. دون غبار او حرارة ..

وكانت المدينة مزدحمة .. اكثر من المعتاد ..

وفى كل مكان كانت جموع الناس من الجنسين تروح وتجىء ، تشترى وتتمشى على النيل ، تستنشق نسمات سبتمبر .

والفنادق التى اغلقت ابوابها طيلة فترة الصيف ، فتحتها ..

والكازينوهات التى كانت خالية تماما .. تمتلىء من جديد .. بالمدرسين والموظفين .. ورجال السد .

كانت الحياة تنبض بقوة اكثر ..

كأنما تحشد ـ بعد فترة راحة ولعلها كانت فترة تربص ـ كل قواها من جديد .. لتواصل السير .

فهرس

الموضوع	الصفحة
أصعب كتاب في العالم	٥
السوق	٩
الطريق	١٧
معركة يومية وسؤال بلا اجابة	٢٥
السد بلدى	٣٥
الاله القديم	٥٣
أبناء الشمال	٦٧
مصابيح ناصر	٨٧
بطل السد	٩٩
الصعود	١١١
نسمات سبتمبر	١٢٩

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

العدد ٢٠١
١٠ يناير سنة ١٩٦٧

الثمن ٣٠